القسم الثانى

الروح الإسلامية
ومدى تأثيرها فى النفس البشرية

الروح الإسلامية ومدي تأثيرها[1] في النفس البشرية

- ١ -

لم تصدق نظرية الفيلسوف الفرنسى الكبير جان جاك روسو فى العقد الاجتماعى على أمة غير الأمة الإسلامية[2] فهى الأمة الوحيدة التى قامت على مبدأ التعاقد بين آحادها على احترام أصول إلهية مقررة، والعمل بدستور سماوى مدوّن. فكانت هذه الأمة لهذه العلة بنجوة عن كل ما تلتاث به الجماعات فى أول تكونها: من رعونات النفوس، وجمحات الغرائز، وسطوات الأهواء التى تصحب دائماً دور النشوء للجماعات البشرية، فنشأت فاضلة، وشبت فاضلة، واكتهلت فاضلة، ولم تزل روحها فتية فاضلة، على الرغم مما لحق بالجماعات الممثلة لها من الضعف بسبب انحرافهم عن صراطها لعللٍ عارضة ليس هذا محل بيانها.

نعم إن نظرية روسو لم تصدق إلا على الجماعة الإسلامية، وبيان ذلك أن الجماعات العربية على عهد البعثة المحمدية كانت مستقرة على الحالة القبيلية

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد السابع سنة ١٣٥٥ هـ، ص ١٤

(٢) كان من رأى الفيلسوف جان جاك روسو أن الجماعات البشرية لم تتكون إلا عقب تفاهم حدث بين آحادها على التآلف بينهم والحياة حياة مشتركة، تحت قيادة حكومة معترف بها من الكافة.
وقد راجت هذه النظرية فى القرن الثامن عشر، ولكنها لم تلبث أن سقطت لما ثبت من أن الجماعات تتألف محفوزة بعوامل قاهرة من البيئة ضرورات الحياة، ويكون تآلفها فى أوله ساذجاً، ثم يترقى بترقى مدارك آحادها، واقتضاء سلامتها العامة لزيادة الترابط، واكتمال التعاون بين جميع عناصرها.

القائمة لديهم منذ أول نشوئهم فى جزيرة العرب؛ وكانت هذه القبائل تتعادى وتتناحر، ثم تتصالح وتتصافى على نحو ما كانت عليه الأمم المتخالفة أجناساً ولغات وديانات.

وقد شوهد أن عدة قبائل كانت تعقد بينها خلفاً ضد مجموعة أخرى من القبائل، ولكن مع حفظ كل منها لاستقلاله الذاتى، وتقاليده الموروثة، كما كان يحصل بين الأمم المختلفة لدفع عدو مشترك، أو للإغارة على جماعات مجاورة، يتطلب التغلبُ عليها قوى متضافرة. ثم تنقلب الحال فيصبح أعضاء الحلف الواحد، أعضاءً فى حلف آخر ضد حلفائهم الأقدمين، كما كان يحصل ولا يزال يحصل بين الأمم المتباينة الأصول والمصالح.

وكانت وحدة البيئة لا تأثير لها فى إيجاد الوحدة الاجتماعية بينهم. ومن يطلع على تاريخ حروب العرب يجد من ذلك عشرات من الأمثلة، من أشهرها ما كان بين عبس وذبيان وبين الأوس والخزرج، وكانت الحروب تدوم بينهم عشرات من السنين. وكانت الحالة القبيلية متأصلة فيهم إلى حد أن خصوبة اليمن وخفض العيش فيها لم يلطف من هذه الحالة فيهم، فإنه لما تهدم سد مأرب باليمن واجتاح أرضها، واضطر كثير من أهلها أن يهاجروا منها، فعلوا ذلك وهم قبائل متميزة كالأزد وقضاعة وجرهم والأوس والخزوج وغسان وتنوخ إلخ.

ومن أقوى الأدلة على أن حالتهم الاجتماعية لم تكن ماسة إلى الوحدة، أنه لم يظهر فيهم فى كل أدوار تاريخهم الطويل داع يهيب بهم إليها، كما يكون ذلك بين يدى كل انقلاب يطرأ على بِنىَ الأمم.

دام الحال على هذا السمت حتى بعث الله محمدا ﷺ بالدين الحق يدعو الأمم عامة لا العرب خاصة للدخول فيه، فكان هو ومن أسرع للإيمان بما جاء به أول نواة لمجتمع يتألف على غير مثال سابق، مجتمع يقوم على الأصول الإنسانية الخالدة، والمبادئ الخلقية القيمة، والسمو الروحانى المطلق، غير معتد

بالجنسيات والقوميات، ولا باختلاف البيئات واللغات، راميًا إلى توحيد الإنسانية جمعاء فى دائرة الحق المحض، والكمال البحت، والمدنية الفاضلة.

هذا أول حادث من نوعه فى تاريخ البشر، فلم يطف بخيال فيلسوف أو مصلح فى أى عهد من العهود أن يدعو العالم كافة للدخول فى وحدة عامة، وبخاصة إن لم يكن قومه قد وصلوا من سلم الاجتماع إلى درجة أمة، حتى يعقل أن يحدّث واحد من آحادها نفسه أن يجمع البشرية جملة، وكان بحسبه أن يوحد الأمة التى هو فرد منها، فيخلد اسمه فى سجل أكبر المصلحين فى العالم كله.

فهذا النزوع من محمد ﷺ إلى الوحدة الإنسانية العامة، وهو فى أعرق بيئة فى الفرقة، دليل قاطع على أنه كان يردد صوت الوحى السماوى، ويستمد من معدن الحكمة الإلهية.

هذه الدعوة مجردةً كان مما لا يستحيل تعليلها لولا أنها اصطحبت بتعاليم ذات صبغة عالمية لم تَدُر بخَلد أقطاب الفلاسفة والمصلحين، ولم يتسنّ لأشهر العباقرة أن يتخيلوها تخيّلاً، بَلْهَ أن يأتوا بها بالبيان التفصيلى الذى جاءت على لسان خاتم النبيين ﷺ، وقد سردناها تباعاً فى بحث مهمة الدين الإسلامى فى هذه المجلة.

إن الباحث فى جوهر الإسلام يشعر أنه خيال خِضَمّ مُتعَنْجَر متلاطم الأمواج إن وقف على ساحله تهيّبه، وإن خوَّض فيه بعلم وحكمة لم يصل إلى ساحله، فيحار فى أى ضروب المعارف يلتقط، وإن جمع طائفة منها حار فى ترتيبها، لا لأنها تستعصى على الترتيب، ولكن لبعد أغراضها، ولطف مسالكها. فلذلك كان لابد للمعنىٍّ بها أن يقسم الكلام فيها إلى بحوث متعددة بقدر ما يرى فيها من الوجوه الممكنة.

إن مانشرناه فى هذه المجلة تحت عنوان (مهمة الدين الإسلامى فى العالم) وإن كان قد استوعب كثيراً من أصول الإسلام، إلا أنه لا يمكن أن يصور

جميع وجوه تلك التعاليم، ويستوعب كل مواطن تأثيرها، فى العقول والقلوب، ويكشف عن مكنون أسرارها، فلا مناص لنا من اللجأ إلى ماقررناه من وجوب إفراد بحث خاص لكل وجه من وجوه تلك التعاليم القيمة. وها نحن نشرع فى ذلك جاعلين هدفنا فى هذه المرة دراسة عناصر الروح الإسلامية ومدى تأثيرها فى النفس البشرية، فى أدوار الانقلابات الاجتماعية، فنقول:

نحن من قيام المجتمع الإسلامى وظهوره على سائر المجتمعات التى كانت معاصرة له حيال حادث جلل لم يجر على السنن المعروفة للعلم، لا فى أدوار وجوده، ولا فى عناصر كيانه، فهو بالأمور الخارقة للعادات أشبه. ونحن نبسط المسألة أولاً ثم نشرع فى معالجة تفهّمها وحلّها، توسّلاً إلى دراسة مانحن بصدده من عناصر الروح الإسلامية:

كانت الحالة الاجتماعية فى جزيرة العرب فى العهد الذى بعث ﷺ فيه مستقرة على ما كانت عليه منذ قرون كثيرة. فأطرافها من الشمال والغرب والجنوب كانت مملوكة للرومانيين والفرس، والجزء الباقى منها، وهو المحصور بين هذه الحدود الثلاثة والبحر الأحمر، كان موزعاً بين مئات من القبائل، على حالة من الحياة البدوية مَرنوا عليها من لدن نشوئهم فيها. ولم يكن فى مجموعة من هذه المجموعات البشرية قلق ينم عن شعور بوجوب استبدال نظام اجتماعى جديد بهذا النظام الساذج العتيق. يدل على ذلك دلالة قاطعة عدم قيام دعوة صريحة إلى صلاح دينى أو اجتماعى من أى ضرب كان، ولا إلى بث مبدأ سياسى يقصد به إلغاء نير السيادة الأجنبية عن الحدود الثلاثة لجزيرة العرب. فبينا كان السكون تامًا فى ذلك الركن من العالم إذا بصيحة تنبعث من صميمه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1].

(١) الأعراف: ١٥٨

فلم يأبه بهذه النصيحة خارج البلاد العربية أحد لعلمهم أن هذه البقعة من الأرض ليست مثار خطر على أية دولة من دول العالم، وبخاصة على الدولتين اللتين كانتا قد توزعتا ممالكه كلها وانفردتا بالسلطان فيه. وزادهما اطمئناناً أن هذه الصيحة بعيدة عن البقاع التى دانت لحكمهما من جزيرة العرب.

ومن الذى كان يعقل أن تتخطى هذه الصيحة مئات القبائل التى تحول بين مكة وتلك البقاع وتنتشر منها إليهما وتصبح مثار خطر على كيانهما؟

قابل الناس هذه الصيحة بالإعراض، وقابل الملوك الكتب التى وصلتهم من صاحبها بالإهمال؛ ومنهم من رأى فى دعوته للإيمان غضا من كرامته فمزق الكتاب كل ممزق وذراه فى الهواء.

فما مضت بعد ذلك سنون تعد على الأصابع حتى شهد الناس أمراً لم يكن يخطر ببال، ولا يطوف بخيال، رأو العرب ينصلتون من بلادهم شمالا وشرقا، وهم على حالة من الوحدة والترابط ونكران الذات لم تؤثر عن غيرهم، منتدبين لإحداث أكبر الانقلابات العالمية التى لم تسجل فى تاريخ البشرية من لدن وجودها إلى ذلك العهد، فانتزعوا من الرومانيين سورية ومصر وجزر البحر الأبيض المتوسط، وضربوا الجزية على عاصمة عواصمهم القسطنطينية، وقضوا على دولة الفرس، وأوغلوا شرقاً حتى وصلوا إلى أسوار الصين، ولم يدعوها حتى فرضوا عليها إتاوة سنوية، ونزلوا إلى شبه جزيرة ايبريا فى غرب أوروبا فامتلكوا الأندلس بعد أن دان لهم شمال القارة الأفريقية، وما عادوا من جولتهم هذه حتى كان لهم ملك لا تغرب عنه الشمس، ولم ينبغ لأُمَّةٍ كانت قبلهم أو جاءت بعدهم إلى يومنا هذا.

كل هذا كان فى نحو خمسين سنة، وهى طفرة لم تشاهد فى أية حركة اجتماعية ولا لأشهر الأمم الفاتحة للأرض، وهى الأمة الرومانية، فإنها لم تبلغ غاية توسعها إلا فى ثمانمائة سنة، ولم تصل إلى ما وصل إليه المسلمون فى تلك المدة.

والعجب العاجب فى هذا الأمر أن المسلمين استطاعوا بفضل العدل الذى عاملوا به مقهوريهم، والعطف الذى أظهروه نحوهم، والنظام الذى أداروا به ممتلكاتهم، أن يحفظوا وحدة هذه الامبراطورية التى لم تشهد الأرض مثلها، فلم تشق عصا الطاعة عليهم، ولم تحاول التفلت من سلطانهم، فكانت الطريقة المثلى التى عاملوا بها الأمم التى خضعت لهم أحفظ لها من جنودهم ومعداتهم.

ومما يجب لفت الأنظار إليه أن هذه الجماعة الإسلامية لم يبطرها ما نالته من تبسط فى الأرض، فأخذت تستغل هذه الأقطار لتعيش عالة عليها فى ترف وخفض وبذخ، كما فعلت جميع الأمم الفاتحة قبلهم ولكنها شرعت تنظم وجودها، وتضع أحكم القوانين لإراحة مقهوريها، وأخذ آحادها يبحثون عن حقائق العلوم من أغزر مناهلها، وعن أسرار الصناعات والفنون من أخفى مظانها، فلم يمض عليهم قرنان حتى جمعوا بين أطرافها، ومزجوا بين عناصرها، فأصبحوا حفظة كنوزها، وكَشَفة رموزها، وصاروا للعالم كله أئمة فيها، فنشروها حيث وطئت أقدامهم، فكانت بسببهم نهضة عالمية تولدت منها العلوم والفنون التى ابتنى عليها صرح المدنية الحاضرة.

هذه كلها حقائق معترف بها لا يختلف فيها مؤرخان فى الأرض، حتى من الذين يتوركون على الإسلام ويحاولون الغض منه. فنحن والحالة هذه إزاء حادث عالمى خطير قامت به أمة تألفت على غير السنن المعروفة فى قيام الجماعات البشرية. وكما كان لكل مجتمع روح تقوّمه وتهيمن عليه، وتمده بما يحتاج إليه من العوامل والبواعث، وتهيئه للدخول فى الأطوار التى يقتضيها وجوده ككائن حىٍّ نام، كان لابد للباحث فى حقيقة الإسلام من أن يحلل الروح الإسلامية التى ألفت عناصر هذا المجتمع وتولته حتى قام بما قدر له أن يقوم به من الحوادث العالمية.

هذا هو موضوع بحثنا الجديد فى هذه المجلة سنقوم، إن شاء الله، بنشره فى مقالات متتابعة، كما نشرنا البحث الذى تقدمه، مستمدين من الله التوفيق، وهو يتولى المؤمنين.

الروح الإسلامية ومدى تأثيرها[1]
فى النفس البشرية

- ٢ -

مقابل هذه الروح من الشخصية الإنسانية

نحن بإطلاقنا كلمة روح على هذه المباحث إنما نسميها بما سمى به الحق سبحانه وتعالى تعاليمه ووصاياه التى أوحاها إلى رسوله ﷺ فى قوله جل شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[2]

قال المفسرون: وإنما سمى الله ما أوحاه إلى رسوله روحا لأن به حياة القلوب كما بالروح الإنسانية حياة الأجساد.

ولما كان الخالق الحكيم لا يكلف عباده إلا بما يستطيعون القيام عليه، وما كمن فى جبلتهم من القوى الحافزة إليه، فقد سمى الدين الجامع لجميع خصال الخير بدين الفطرة إيذانا بأنه موافق لها كل الموافقة.

---

(١) مجلة الأزهر المجلد السابع سنة ١٣٥٥ هـ ص ١١٣

(٢) الشورى: ٥٢.

فالروح الإسلامية تعتمد على الفطرة الإنسانية، وتستمد منها سلطانها على العقول، وحجتها على الخلود. ولما كان هذا الموضوع يمسّ أساس الدين وعليه يتوقف استيلاؤه على النفوس، وبه تبلغ أدلة هذا الدين أقصى ما قدر لها من قوة، وجبت علينا زيادة بيان له فنقول:

خلق الله الإنسان مطبوعاً على نحائز تحفزه إلى الخير، وغرائز تدفعه من السمو إلى مدى لا يبلغ إليه العقل، ولا يصل إلى غايته خيال، ناهيك بكائن علّمه مبدعه الأسماء كلها وأسجد له ملائكته. فهذه إشارة إلى إنه بمكان من قبول الترقى بحيث يصل إلى مقاوم روحانية يفضل بها الكائنات العلوية. وهذا التقدير الإسلامى للإنسان قد انتهى إليه مذهب العلم المادى فى القرن العشرين. فكتب العلامة الكبير (شارل ريشيه)[1] مدرس الفيزيولوجيا فى كلية الطب الباريزية وأحد أعضاء المجمع العلمى الفرنسى، فى مقدمة كتبها لكتاب (الظواهر النفسية)[2] للدكتور ماكسويل، النائب العام فى حكومة الجمهورية الفرنسية، لطبعته الخامسة الصادرة فى سنة (١٩١٤) قال:

« إذا سالنا رجلاً متوحشاً، بل لو سألنا فلاحاً مصرياً أو قرويا روسيا عما يعلمه عن قوى الطبيعة، وجدناه لا يدرى منها عشر ما تسرده منها الكتب الأولية لهذا العلم فى سنة ١٩٠٣ (هى السنة التى كتب فيها هذه المقدمة). ويظهر لى أن علماء هذا العصر سيكونون حيال علماء القرون المقبلة فى مثل حال قروى اليوم إزاء أساتذة جامعة فرنسا» انتهى.

وقد دفع هذا التقدير الإسلامى للإنسان إلى اعتقاد المسلمين بأنه بما أودع صميمه من روح الله يعتبر به عالمًا وحده، بل ذهب بعضهم إلى القطع بأنه العالم الأكبر فقال شاعر:

أتزعم أنك شيء صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وإذا كان اعتقاد المسلمين هو هذا، فأى كمال يرون الإنسان دونه، وأى مرتقى من السمو يظنون أنه لا يبلغه ويجوزه إلى حيث لا تصل الظنون والأوهام؟

(1) Charles Richet.
(2) Les phenomenes Psychiques, Dr Maxwell.

وما دام هذا مسلّمًا به فأى تكليف مهما كان شاقاً عنيفاً لا يتهله الإنسان ليبلغ هذا الملك الذى لايبلى، وأى رياضة نفسية لا يتحملها ليصل إلى هذا المستوى الذى دونه كل مستوى؟

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ (أي التكاليف المناسبة لكرامة الإنسانية) عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[1]

أى كان ظلوماً لعدم القيام بأدائها جهلاً منه بثمراتها.

والنظر المجرد فى كل ما أدركه عقل الإنسان من أسرار العلوم، وما سخره من قوى الكون، وما تم على يديه من الصنائع والاختراعات، يدل من طريق محسوس على أن الفطرة الإنسانية ثرية فى القوى المعنوية، ثروة لا يمكن تقديرها بهذا العقل العادى فى أى دور من أدوار رُقيه، لأن ما حكم هذا العقل عليه بالاستحالة فى عصر من العصور، وصل إليه هذا العقل نفسه بعد عهد قريب أو بعيد. أما رأيت أن شيخ الفلاسفة الحسين (أجوست كومت) أراد أن يضع حدوداً للممكن وغير الممكن، وعدّ من غير الممكن معرفة تركيب مادة الكواكب، فلم يمض على كتابه الذى قرر فيه هذا الرأى بضع سنين حتى اكتشف أحد المخترعين آلة البكترسكوب المؤسسة على تحليل ألوان الأشعة الشمسية، فعرفت مادة الكواكب بطريقة محسوسة لا يمكن النزاع فيها؟

وإذا لم يكن الإنسان مفطوراً على بلوغ أقصى ما هو أهل له دفعة واحدة، فإنه مطبوع على أصول أولية يستطيع أن يقوم عليها، دون هاد يهديه إليها، وهى ما سمى بالمعارف الضرورية. فيستطيع أن يميز بها بين الحسن والقبيح، وبين النافع والضار، وبين الخير والشر، وغرز فيه من البواعث على التكمل ما يحفزه إلى العروج إلى أرفع مكانات الارتقاء.

ولما كان الغرض الأول من الدين الحق هو إيصال الإنسان إلى كماله، من طريق تنبيه غرائز التكمل الكامنة فى طبيعته، وإيقاظ عواطف السمو الثاوية فى

---

(١) الأحزاب: ٧٢.

روحه، فقد اتفق الدين الحق والفطرة الإنسانية كل الاتفاق، فإذا كان بينهما فارق فهو فى أن الفطرة قوى معنوية مبثوثة فى كيان الإنسان، والدين ترجمة طبق الأصل لهذه القوى. وقد ورد التنزيل مؤيداً هذه الحقيقة الفلسفية، فقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١)

فاذا قلنا إن الإسلام دين عالمى عام يسع الخلق كلهم، وهو خالد خلود الحقائق الكلية، ساغ لنا ذلك، بل عدّ من باب تقرير الواقع، لأن الفطرة الإنسانية عالمية عامة، وغرائزها وميولها مستقرة خالدة، وكل ما وافق المثل العليا التى تتجه هذه الفطرة إلى تحقيقها فهو دينها الحق الذى لا تجد عنه مَعْدلاً. ولكن الأمر يحتاج إلى أدوار كثيرة من التطور تدخل فيها النفوس البشرية لتتهذب وتخلص من رعوناتها الحيوانية، وتقوم على صراطها الذى نهجه الخالق لها، وتتعرف الأعلام التى نصبها فى الكون لتسترشد بها، وإلى هذا يشير الحق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(٢)

وكل دين لا يعتمد على الفطرة التى فطر الله الناس عليها فمحكوم عليه بالزوال متى وصلت عقول أهله إلى الرشد، ومتى ضعف فيهم تأثير التقليد الأعمى لآبائهم. وهذه النتيجة تعتبر طبيعية من كل وجه، لأن كل ما لاينطبق على العقل يضعف أثره على النفس على نسبة الاستنارة التى يصل إليها هذا العقل، وكل ما كان لا معتمد له غير داعية التقليد الأعمى يضمحل باضمحلال الداعية التى يقوم عليها بتقدم العلم والفلسفة، والعالم من هذه الناحية فى تطور مستمر، وإن شوهد أن سيره وئيد، فذلك لأن الأديان البشرية قد أصبحت عنصراً من عناصر القوميات، فهى باقية بفضل هذا الامتزاج، ولكن تطور أصول الاجتماع سينتهى بإخراج هذا العنصر من كيان القوميات، كما أخرجت

(١) الروم من: ٣٠

(٢) فصلت: ٥٣

عناصر أخرى أصبحت فيها عللاً للضعف، ولعل ما طرأ من هذا القبيل فى علاقات الأمم بالأديان من التراخى، يشير إلى أن سنة التمحيص تعمل على عزل كل ما هو باطل من كيان الأمم، ليتم التلاؤم بين ما وصلت إليه عقولها، وما يجب أن تكون عليه مقوماتها.

وكل هذه التفاعلات الأدبية والاجتماعية بين الأمم تعتبر فى الواقع تمشياً نحو مقتضيات الفطرة الإنسانية السليمة، وكل ما يعمل لمصلحة الفطرة هو فى الواقع، بناء على ما علمت، عمل لمصلحة الإسلام، وجهد مبذول لتعميم دولته فى الأرض، فالمستقبل للإسلام وإن جهل ذلك الجاهلون، أو تجاهله المتعصبون.

فانظر على أى أساس تقوم الروح الإسلامية من الطبيعة الإنسانية، وعلى أى الغرائز الفطرية تعتمد لتحقق مقاصدها العالمية؟ إن ديناً يقوم على مثل هذا الأساس المتين لا يعقل أن يبلغ منه الخصوم، فكل سهم يوجهه إليه منازع يرتد إليه فيصميه، وكل كيد يدبره له كائد يعود عليه فيرديه: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[1]

(١) التوبة: ٣٢.

الروح الإسلامية ومدي تأثيرها[1]
في النفس البشرية

- ٣ -

المقومات الروحية للذات الإنسانية

الإنسان جسد وروح، فهو بهذا الجسد المادى يندرج فى جملة الكائنات الأرضية وتسرى عليه نواميسها، وهو بروحه يتصل بالعالم الروحانى ويتناسب وكائناته العلوية، فى عالم أرفع من هذا العالم. وكما هو فى حاجة إلى مدد يتبقى به وجوده المادى من طريق التغذى والتنفس، كذلك هو فى حاجة إلى مدد نورانى يستديم به صلته بالعالم الروحانى. وكما أن الإنسان ينحل جثمانه ويزول بحرمانه من المدد المادى، كذلك هو يخرج عن إنسانيته ويتدلى إلى عالم الحيوانية إن حرم من المدد المناسب لروحه.

والإنسان مدفوع بغرائز طبيعية فيه إلى التكمل فى هاتين الناحيتين، فمحاولاته لحفظ ذاته دفعته للاجتماع على أمثاله، والتكافلُ الأدبى والمادى الناتج من هذا الاجتماع كشف له من مساتير الكون ومكنونات العلم ما مكنه من تسخير قوى طبيعية كان قد ألّهها فى أزمان جاهليته وعبدها. وهذا الترقى العلمى فتح له باب الإبداع الصناعى، فبلغ منه إلى مستوى ما كان يتخيل أن يبلغه، وهو يحاول أن يرتقى فيه إلى ما هو أرفع شأناً منه.

---

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد السابع ١٣٥٥ هـ، ص ١٦٥

وأما محاولاته لاستبقاء الصلة بينه وبين العالم الروحانى فلم يقصر فيها الإنسان فى عهد من عهوده، فقد أثبت علم الاجتماع أنه كان يدين بدين حتى فى أقدم أدواره، بحيث لا يمكن أن تصادف جماعة من جماعاته الأولية محرومة من صلة روحانية.

نعم إن هذه الصلة كثيراً ما صادفت عقبات فى طريقها، تارة من طغيان سذاجة الجهالة عليها، وطورا من تدخل الوسطاء فيها، ولكن أشد ما أصيبت به كان من ناحية سطوة العلم المادى عليها، بإثارة الشبهات ضدها، رامياً بذلك إلى تجريد العقلية الإنسانية من آثار التعاليم الدينية، زعماً منه أنها بقية من بقايا الجاهلية، وأن العلم يقوم مقامها من ناحيته الفلسفية.

ولكن المدبر الحكيم تدارك الروح الإنسانية بأن كشف لها من عالم الروح، بطريق البحث العلمى، ما كان العلم يظنه من الخيالات الوهمية، فعاد للدين الخالص سلطانه الأول، ولكن مؤيداً فى هذه الدفعة بالعلم نفسه، فكان انتصاره آية من آيات الله فى خلقه، ومصداقاً لقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

ويحسن بنا فى هذا المقام أن نستشهد الفلسفة الأوروبية نفسها بعد حدوث هذا التطور العظيم فيها، فإليك:

قال الفيلسوف الفرنسى الكبير (إرنست رينان) فى كتابه (تاريخ الأديان)[2]:

«من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شىء نحبه، وكل شىء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها، ومن الممكن أن يبطل استعمال القوة العقلية والعلم والفن، ولكن يستحيل أن ينمحى التدين أو يتلاشى، فيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يرمى إلى حصر الفكر الإنسانى فى المضايق الدنيئة للحياة الترابية».

---

(١) المجادلة : ٢١

(2) Ernest Renan, Histoire des Religions.

وقال الفيلسوف الفرنسى النابه (أجوست سباتييه) فى كتابه (فلسفة الدين)[1]:

«لماذا أنا متدين»

«إنى لم أحرك شفتى بهذا السؤال مرة إلا وأرانى مسوقاً للإجابة عنه بهذا الجواب وهو: أنا متدين لأنى لا أستطيع أن أكون خلاف ذلك، لأن التدين لازم معنوى من لوازم ذاتى.

«يقولون ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج».

« فأقول لهم قد اعترضت على نفسى كثيراً بهذا الاعتراض عينه، ولكنى وجدته يعقد المسألة ولا يحلها. وأن ضرورة التدين أشاهدها بأكثر قوة فى الحياة الاجتماعية البشرية، فهى ليست أقل تشبثاً منى بأهداب الدين».

إلى أن قال:

«إذن فالدين باق وغير قابل للزوال، وهو فضلاً عن عدم نضوب ينبوعه بتمادى الزمن، نرى ذلك الينبوع يتزايد اتساعاً وعمقاً تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفى والتجارب الحيوية المؤلمة».

هذا لسان الفلسفة الأوروبية العصرية، ولابد لنا من التنبيه هنا على أنها إذا ذكرت الدين فإنما تقصد به الدين بمعناه المطلق، لا شكلاً متحجراً من أشكاله التى لا تدخل تحت حصر.

وقد تبين لنا مما تسجله الفلسفة على نفسها أن الدين باق لا تعدو عليه العوادى، لأنه لازم معنوى من لوازم الفطرة الإنسانية (فطرة الله التى فطر الناس عليها)، ولأن ينبوعه من غرائز النفس، لا يفتأ يزداد اتساعاً وعمقاً على مدى الأيام تحت تأثير الفكر الفلسفى والتجارب الحيوية.

(1) Auguste Sabatier, Philosophie de le la religion

ولكن الذى يراه الناقدون بأعينهم، أن الدين يلاقى من الناس عنتاً اليوم، فهم يتهافتون على الشهوات، ويطرحون وصاياه وتعاليمه ظهرياً، بل يتجاهرون بمنابذته، ومناهضة حفظته إلى أبعد الحدود الممكنة.

نعم: لا نكران لهذه الظواهر، ولكنها لا تنافى الحكم الفلسفى بأن الدين مطلوب الفطرة الإنسانية، وأنه يزداد سلطاناً وصولةً عليها يوماً بعد يوم. فلو سألت مستهتراً فى إباحته: هل تكره الدين؟ لأجابك بقوله: معاذ الله، ولكن أين هو؟ أنا أتوقعه جمالاً معنوياً باهراً، وروحاً علوياً فاتناً، يخلعنى بقوته القاهرة من خسة الشئون الأرضية خلعاً، وينقلنى ولو برهة إلى عالم الكمال الأقدس، لأشعر بلذة السمو على هذه المادة، والخلاص من نيرها. وإن صحبته عقائد فأريد أن تكون حقائق أولية مطلقة، لا تتناقض وما أحصله من ثمرات التفكير الحر، والنظر المستقل، وما يفتح على به من أسرار العلم، وما أكتشفه من مساتير الوجود، لأستطيع أن أمضى تحت نورها قدُماً إلى تحقيق أسمى أغراض الحياة الإنسانية، والوصول إلى أبعد غايات المدنية.

هذا ما تسمعه من كل مفكر فى هذا العصر، فإن ألفيته شاكاً، فليس هو بشاك فى سمو الدين الذى يتطلبه، وفى ضرورته له، ولكنه شاك فى وجوده، بل وفى إمكان وجوده على الأرض.

لسنا بسبيل الإفاضة فى هذه المواطن، ولا فى التوفيق بين مايبدو متناقضاً فى سيرة الإنسان المعاصر، وإنما نحن بسبيل التدليل على أن الذات الإنسانية فى حاجة ماسة إلى مقومات روحانية، تجعل الصلة بينها وبين عالم الروح مستمرة، باعتبار أن هذه الصلة من ضروریاتها الأولية، وإن أعتى العقول فى هذا العصر لتعترف بسلطان هذه الحاجة عليها، فهل الإسلام وهو خاتمة الوحى الإلهى هو المثل الأعلى الذى تتطلبه النفوس البشرية، وحاصل على المقومات الروحانية؟

قد تم لنا التدليل على كل ما مر من هذه المسائل إلا المسألة الأخيرة الخاصة بالإسلام، وإنها لموضوع هذه المقالة.

ألا يكون أوقع فى النفس، وأثلج للصدر، وأبعد عن الظنن، أن نستشهد بعالم أجنبى فى صحة نظرنا إلى الإسلام من هذه الناحية؟

نعم، فإليك:

كتب الأستاذ الجليل سِنكْس فى المجلة الروحية التى تصدر بباريس[1] مقالات متتابعة عن الأديان، نقد كلاً منها نقداً صريحاً، فلما انتهى إلى الإسلام كتب عنه مقالاً قيما ختمه بقوله:

«الإسلام الخالص من كل التعاليم الخاصة بالشعوب الطفلة، ومن كل الشروح الضالة لأقوال النبى، يظهر لنا أنه أعلى ما يمكن أن يعرف من الصلات التى يجب أن توجد بين الإنسان وخالقه، وأكثرها انطباقاً على الطبيعة والمنطق».

هذه أصح وأعدل شهادة قالها عالم عارف بالنفسية الإنسانية، فإن الإسلام الخالص يمثل أرفع صلة يمكن أن توجد بين الإنسان وقيوم السموات والأرض، بعد سحق جميع القواطع بينها وبينه، بحيث يكون معها متعرضاً لإشراقاتها دون حجاب من عقيدة تقليدية، أو حالة نفسية وراثية. فقال الله تعالى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (أى مائلاً عن العقائد الباطلة)، فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

وقد شرح النبى ﷺ هذه الفطرة فقال: «كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه». أى إن المراد بإقامة دين الفطرة أن يكون

---

(١) Se`nex, lsRevue Spirite

(٢) الروم: ٣٠.

الإنسان على الحالة التى ولدته أمه عليها، خالصاً من كل صورة ذهنية، ومن كل شائبة نفسية.

فالإسلام تحت ضوء هذه النصوص الصريحة يقتضيك أن تبرأ إلى الله قبل الدخول فيه من علمك وحولك وموروثاتك، ومما علمت، وما تخيلت، وما أملت، مسلماً نفسك إليه، مجرداً روحك له، تاركاً العلوم ومعاضلها، والفلسفة ومسائلها، والعادات وتناقضها، والأديان وتخالفها، والأمم وتناحرها، والأهواء ومواطنها، والوجود المادى وما فيه، ثم تتوجه بقلب خالص من الشوائب، وضمير خال من الأدناس، ونفس صافية من الرعونات، إلى قيوم السموات والأرض، فاراً إليه من الأغيار، لاجئاً إليه من دعوى الأنانية والاستقلال، معتصمًا به من التلونات البشرية، راغباً إليه أن يهديك لمراشده فى هذه الحياة وما بعد هذه الحياة.

هذا ما يقتضيه منك الإسلام أول ما تدخل فيه، فلو نظرت فيه نظراً علميًا لرأيت أنه المطلب الذى رمت إليه جهود جميع الفلاسفة والمصلحين، وسائر فرق الصوفية الأولين والمحدثين، وعجزت مجتمعة عن تدعيمه هذا التدعيم العلمى العملى على الفطرة الإنسانية، وعن إقامته أصلاً أوليًا للدين، وتعميمه بين الناس أجمعين.

فلو اعتبرت كل ما كان يتواصى به العباقرة والعلماء من أصول التمحيص، وقواعد التحليل، لإقامة الدستور العلمى على قرار ثابت ركين، وما كان يتناقله المتصوفون من أسرار تصفية النفس من الأغيار، وتخلية القلب من جميع الآثار، للوصول إلى الحق من وراء كل ستار، لو اعتبرت كل هذا ونظرت إلى معنى الإسلام الذى قدمناه لم تعد تحار فى تعليل حدوث ذلك الأثر المدهش بواسطته من انتقال أمة برمتها من دور الجاهلية الجهلاء، إلى دور الحياة الصالحية التى بلغت بالسير عليها إلى الزعامة العالمية فى أقل من قرن من الزمان.

نعم: لم تعد العقول تحار فى تعليل الأثر العالمى الضخم للإسلام بعد ماتبين لها أن أساس الإسلام هو الإملاس من كل ماران على صفحة القلب من الأضاليل والأوهام، والوراثات والتقاليد، وتعريضه خالصًا نقياً للحق يطبع فيه

من صور الخلال الكريمة والأصول القويمة، والمبادىء السليمة، ما يجعله إنساناً جديداً متحلياً بكل القوى المعنوية التى ترفعه إلى المرتبة التى يستحقها على قدر استعداده جسداً وروحاً.

وهل نال الأفذاذ من كرام هذا النوع ما وصلوا إليه من المراتب الروحية العالية، إلا بواسطة ما هُدُوا إليه من هذه التخلية، فلما جاء الإسلام جعل هذه التخلية التى أفنى العباقرة قواهم فى الوصول إليها أساساً أوليا للدخول فيه. فإن تعجب من انقلاب وحوش الجاهلية الضارية إلى أتقياء زَهَدة، ومصلحين بررة، ومن تطور خُشُبها المسنّدة إلى هيم منهومين[1] يتصيدون كل علم، ويتلمسون كل حكمة، ويقتبسون كل فضيلة ويتطلبون كل خير؛ ويتحرون كل حق، ويكافحون كل باطل، حتى وصلوا إلى أعلى مايمكن أن تصل إليه أمة من جلال وعظمة وسيادة فى سنين معدودة. إن تعجب من هذا فإن أعجب منه أن يَغْبَى الباحثون عن هذا السر العظيم، وهو الشرط الأول للإسلام عند المسلمين.

فالإسلام بأخص معانيه يحقق لروح الإنسان حاجتها من المدد الروحانى، فإذا أقامه الآخذ به حق إقامته ولو لحظات فى صلواته، نال من الفيض الإلهى ما يأخذ بيده إلى مكانات الفاضلين، ومراتب الأفذاذ الممتازين، وليس بعد الحوادث برهان، ولا فوق العيان سلطان؟

(١) هيم أى عطاش جمع هائم. والمنهومين أى المصابين بالنهم، وهو بلوغ شهوة الطعام إلى أقصى حدودها.

الروح الإسلامية ومدى تأثيرها[1] في النفس البشرية

- ٤ -

المقومات النفسية للفرد والجماعة

الروح والنفس لفظان مترادفان يدلان على شيء واحد، وهو النفحة الإلهية التى تحل بالجسم الحى وتظهر فيه بمظاهر الحركة والحس والتعقل والإرادة، ولكن الفلسفة فرقت بينهما تفرقة صناعية، فجعلت الروح خاصة بتلك النفحة الإلهية فى سمو جوهرها وصفائها من كدور الطبيعة المادية، وتنزهها عن التلونات العرضية؛ وجعلت النفس اسمًا للشخصية التى تنشأ من تعلق الروح بالجسد، حيث تكون فيها محجوبة به ولا تتصل بالوجود إلا من طريق حواسه الخمس. وفى هذه الحالة تكون تلك الشخصية التى تنشأ عنها ملتاثة بأقذاء الطبيعة المادية، تشبه من جميع الوجوه الشخصية الحيوانية[2] بل تكون بما تستمده من حيل العقل، أشد تطرفاً منها فى الشهوات البهيمية والميول الوحشية.

---

(١) مجلة الأزهر المجلد السابع سنة ١٣٥٥ هـ ص ٢٢٩.

(٢) ويقول أصحاب المباحث النفسية من علماء أوروبا إن الروح نفحة إلهية لا يدرك أحد كنهها، حالة فى جسم أثيرى يشبه جسد صاحبها. وهذا الجثمان اللطيف هو النفس وهو قابل للتطور تحت تأثير الروح، وهما معا ثاويان فى الجسد الإنسانى ولا ينفصلان عنه إلا عند الموت، فإذا أودع الجسد القبر استحال فيه إلى تراب، وصعدت الروح وظرفها الأثيرى لتعيش مع الأرواح فى عالم أرق من هذا العالم وتكابد فيه تطورات جديدة ترقى بها إلى آفاق أعلى.

وقد أعجز ترويض هذه النفس الهداة والمربين فى كل زمان ومكان، واستعصى علاجها حتى على العلم نفسه مع ما أوتيه من وسائل التأديب، وذرائع التأثير، وما كشفه فى سويدائها من مواطن الاقتناع، وعوامل الرُّعْوَى. فذهبت كل هذه المحاولات سدى، وبقيت النفس وهى فى أزهر البيئات مدنية، أشد ما تكون تهافتاً على ما يفسد كيانها، ويعطل إصلاحها، ضاربةً عرض الحائط بكل ما يقيم من أودها، ويرد من جماحها، حتى كأن العلم يزيدها كَلَباً على السفاسف، وشغفاً بالخسائس.

لو كان كمال الإنسانية، حتى من الناحية المادية، يقوم والنفس على ماهى عليه من تمادٍ فى الغَىّ، وإمعان فى البغى، لكان لدعاة الأهواء عذر فى معاصاة حكمة الحكماء وأدب الفضلاء، ولكن الكمال الإنسانى، حتى من تلك الناحية، يتوقف بقدرٍ مَّا على الكمال النفسانى. ولذلك أجمع أهل العلم، حتى الملحدون منهم، على النعى على الإباحة، والتشنيع على أهلها.

فإذا قال معترض: إذا كان ما تقوله حقًّا فكيف بلغت الإنسانية إلى هذه الدرجة من الرقى المادى والأدبى، وكيف ينعم المتمدنون بوجود حافل بالمتع الحسية والعقلية، على حين أن النفوس لا تزال ملتاثة بالصفات الحيوانية، ومستنة بسنة الجاهلية؟

نقول: إن الذين يضعون أصول هذا الرقى ويبنون صرحه، رجال أفذاذ ليسوا من ذوى النفوس المريضة الذين نذكرهم، فهم أفراد ممتازون وقفوا وجودهم على ترقية العلوم والفنون، وانصرفوا إليها حتى أصبحوا كأنهم أجانب عن مواطنيهم، وكان أكثرهم مرضى بأعصابهم وفى عزلة من الناس، كما هو حال العباقرة فى كل زمان ومكان، حتى قيل إن الاضطراب العصبى والعبقرية توأمان متلازمان. ومن دون هؤلاء طبقة وسطى تأخذ عنهم وتستفيد منهم، لم تستنفد الشهوات قواها المعنوية، وهى التى تقوم بنشر هذه الثمرات وتطبيقها على العمل.

فلو حذفت من العالم هذه الطبقة الممتازة من الناس ومن يليها ممن ذكرنا،

بقى الدهماء، الذين نعنيهم منصرفين إلى إشباع شهواتهم، وهؤلاء لو تركوا وشأنهم لما أوجدوا علمًا، ولا أحدثوا عملاً، ولبادوا كما يبيد العاطلون، أو لبقوا على ما عليه المتوحشون.

ولو تأملت فى أسباب تدهور المدنيات التى كانت قائمة فى الأرض لرأيتها تنحصر فى العقم الذى يصيب الجماعات عن توليد الأفذاذ الممتازين، ومن يليهم من الذين يأخذون عنهم، وفى خلو الجو لذوى النفوس الجامحة تجرى إلى حيث تدفعها إليه ميولها الخسيسة دون رادع يردعها، أو مدد صالح يمنع تحللها.

ألم تتصوح زهرة المدنية اليونانية وقد ملأت طباق الأرض، قبل نحو ألفين وخمسمائة سنة، علمًا وحكمةً؟ وبادت المدنية الرومانية التى خلفتها وكانت من قوة السلطان، وتوفر وسائل البقاء، بحيث كانت تلقب نفسها بالدولة الخالدة؟

لا ألفت نظرك لغير هاتين، فإن آثار مدنيتيهما لا تزال ماثلة أمام أعيننا، بل لاتزال أصولهما العلمية، ومبادئهما الفنية أصولاً ومبادىء للمدنية الراهنة. فانظر كيف لم تغن هذه الأصول والمبادىء عن ذويها شيئًا حين طغت نفوس أهلها، ولم تصادف شكيمة تردها عن غيها؟.

وأمامنا اليوم شكل من المدنية افتتن به الشرقيون، وعدّوه غاية ليس وراءها مذهب، واعتبره كثير منهم حجة على الذين لا يزالون منا يذكرون أمراض النفوس وعلاجها، والآداب والوسائل الموصلة لها، على حين أنهم يرون بأعينهم أن كثيراً من أهل تلك المدنية لا يبالون بأمثال هذه البحوث، ولا يقيمون لها وزناً. وهذه من أولئك نظرة خاطئة تصور لهم الأحوال على غير حقيقتها. ففى المدنية الراهنة كما كان فى كل مدنية رجال يحاولون تقويم أود النفوس، ويعملون على إصلاحها، ويبدون غاية التشاؤم من تماديها فى غيها، بل ينذرون بتلاشى هذه المدنية إن لم ترعو هذه النفوس عن بغيها.

قال العلامة الكبير كاميل فلامريون فى كتابه (تعرّف قدرة الله فى الطبيعة)[1]:

«لا يجوز لنا أن نخجل من الاعتراف بما انتهينا إليه من الانحطاط لأننا رضينا به وأصبحت عقولنا المتشبعة بالأثرة لاهم لها إلا أغراضها الذاتية. أليس

حظنا اليوم من الحياة قد استحال إلى جمع الثروة بلا مبالاة بوجوه جمعها، وإلى الحصول على المجد من طريق الغصب لا الكسب، وإلى الجمود وعدم الاهتمام بالدستور والواجبات؟

«إن من التناقض البين المؤلم للنفس أن نرى أن الرقى الباهر الذى حدث فى العلوم مما لا مثيل له فى التاريخ، وأن هذه الفتوحات المتوالية التى تمت للإنسان فى الطبيعة، بينما رفعت عقولنا إلى المدركات العالية، أهبطت إنسانيتنا إلى أخس الدركات؟ ومن المحزن أن نحس بأنه بينما نشعر بنماء قوتنا يوماً بعد يوم، تنطفىء حرارة قلوبنا، وتتصوح زهرة نفوسنا، بتأثير غلبة المطامع المادية، والشهوات الجسدية علينا» أ ، هـ.

وقال الأستاذ (فيرنس جيافرت) فى كتابه (الغمة الحاضرة)[٢]:

«إن التحاقد والتعادى يزدادان يوماً فيوماً فى نفوس أهل البأساء المحكوم عليهم بالفاقة المؤبدة. وإن جنون البذخ والكبر لينمو على قدر ذلك لدى أهل اليسار والترف. وهذا الإلحاد الآخذ فى النمو يسوق جماعاتنا بعاطفة حب المساواة إلى حالة ثورية دائمة. إلى أن قال:

«لقد رجونا أن نداوي مصائب النوع الإنساني بالكنوز المادية التي ألقيت بين أيدينا من منذ قرن من الزمان، كما تكاتف العلماء والمهندسون والصناع والميكانيكيون علي زيادة متع الحياة الدنيا زيادة عظيمة. ولكن لم يكن من ثمرة كل تلك المكتشفات إلا نشر حمى حب المال فى الطبقات السحيقة جداً.

«فأى قانون أدبى يكفى لكبح جماح أهوائنا وإدخالها إلى مجاريها الطبيعية المعتدلة؟ لقد نزح عنا الكمال المعنوى، ولم يبق فينا إلا خوف مبهم من شىء غير مدرك، لأن العقيدة بالله لايمكن زوالها من النفس، فترى الذين لا إحساس لهم يستفيدون من وراء ما وقعنا فيه من الظلمات، وترى العقول المستنيرة بالعلم المحرومة من الدين تعذرهم فى ارتكاب الجرائم. وبهذا فقد أصبحت الشهوات غير واقفة عند حد» انتهى.

---

(١)هذا الكتاب اسمه بالفرنسية (الله فى الطبيعة) وهو عبارة موجزة، الغرض منها تعرف قدرة الله فى الطبيعة:
(Dieu dans la nature, Par Camille Flammarion)

(٢) La tristesse contemporaine, par Fierens Geavert

إن الذى يتأمل فى هذين القولين اللذين سقناهما، ونستطيع أن نأتى على عشرات من مثلهما، يدلان على أن مسألة إصلاح النفسية البشرية لا تزال فى المقام الأول من عناية قادة العقول فى الأمم المتمدنة، وأن الإباحة الشهوانية لاتزال تعتبر العلة الرئيسية فى تدهور الجماعات وانحلالها. فما يظنه السطحيون من أن الكلام فى إصلاح النفوس خاص بالشرقيين، وأن الاشتغال به مظهر من مظاهر إخلادهم إلى القديم، ضلال محض لا يصح الإبقاء عليه، وبخاصة فى هذا العصر الذى فيه يخلط الناس بين الإباحة الحيوانية وبين الحرية.

ففساد النفوس، بناء على ما تقدم، هو مثار كل خطر على حياة الجماعات الإنسانية، ومصدر كل انقلاب يهدد كيانها بالانحلال والتلاشى.

هنا تظهر حكمة الإسلام فى جعل أساس الأمة العالمية التى دعا لتأليفها، إصلاح النفوس وتخليصها من أمراضها، وفى التحتيم بأن يكون هذا الأساس من السمو العلمى بحيث لا تقوى أية فلسفة على توهينه، بل بحيث يظهر كل دستور علمى ناقصاً إذا قيس به، مهما ارتقت المعارف، وقويت العقول، وبعدت غايات الفلسفة.

لقد أوصلت المدنية الأوروبية أهلها إلى غايات من الارتقاء الصناعى ما كان يحلم بها أعلى الخياليين كعبًا فى القرنين الماضيين، وهى على وَشْك أن تفتح للعقول آفاقاً جديدة من العلوم والفنون، ولكنها مع حصولها على هذه الدرجة تشكو الفاقة فى الناحية الأدبية، فيصيح مثل الفيلسوف (فيرنس جيافرت) بقوله: «أي قانون أدبي يكفي لكبح جماح أهوائنا وإدخالها إلى مجاريها الطبيعية المعتدلة ؟».

ويشكو زميله العلامة (كاميل فلامريون) قائلاً: «إن الفتوحات المتوالية التى تمت للإنسان فى الطبيعة بينما رفعت عقولنا إلى المدركات العالمية أهبطت إنسانيتنا إلى أخس الدركات»!

وقد أعلن جمهور كبير من الفلاسفة والاجتماعيين بأن ما هو حادث من التناقض بين العلم والعمل فى المدنية الحديثة، إنذار بقرب انحلالها، وفى انحلالها قيام عهد من الوحشية لا يعلم إلا الله مآل الإنسان فيه. لقد ارتكست

مدنيات كثيرة إلى وحشيات منكرة، فلعبت أدوات الفتك أشنع ما ينتظر أن تلعبه فى مثل هذه الأدوار، فلا ندرى إذا انقلبت هذه المدنية إلى وحشية أى دور تقوم به المهلكات الراهنة بين غازات سامة، وقنابل محرقة، وألغام ناسفة، وبنادق رشاشة تقذف فى الدقيقة ألف قذيفة فتحلق الصفوف المتراصة حلقاً.

وهنا أيضاً ظهرت خفة عقول الذين كانوا ينتقدون الإسلام قائلين إنه لم يصب فى جعل أساس الاجتماع فى أمته دينياً. وقد سحرت هذه الشبهة عقولاً من التى تعلمت على الطراز الغربى من أهل هذا الدين نفسه فجنحت إليها. فماذا يقولون الآن وهؤلاء أهل المدنية العالية لا يخشون على تحطم مدنيتهم إلا من قبل تجرد النفوس من قاعدة أدبية تردها عن غيها، وتدخلها إلى دائرة الاعتدال فى مطالبها المادية؟ وهل يتخيل وجود قوة فى الأرض تستطيع إيتاءها بهذه القاعدة الأدبية غير دين يقوم على دستور أقوى مما تقوم عليه معارفها الكونية، ومبادئها الفلسفية؟ وهل تجد فيما بين يديك من الأديان ما هو حاصل على هذه الميزة غير الإسلام، وعلى حال لا تدع لصاحب شك شبهة؟

كان بعض المتعلمين من المسلمين يقرءون قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾[1].

كانوا يقرءون هذه الآية ويتساءلون: ماللدين ولأصول الاجتماع، ومادخل القيام بأوامر الله من شئون الحياة الدنيوية؟ ولكنهم اليوم يرون بأعينهم أن المدنية الحاضرة على مابنيت عليه من علم وفن يخشى عقلاؤها من مجيء يوم تطغى فيه جاهلية النفوس على حكمة الحكماء فتصبح كأن لم تغن بالأمس.

ذلك لأن الاجتماع كما يحتاج فى قيامه إلى الشعور بالحاجة المعيشية الماسة إليه، كذلك يحتاج فى بقائه واستمراره قوياً متماسكًا إلى قوى أدبية تحفظ للنفوس مكانتها المعنوية، وتزيدها ارتقاءً فى خصائصها الذاتية.

---

(١) الطلاق : ٨,٩

فإذا اقتضت أحوال الوجود، وتقلبات الحوادث، أن تمنى الجماعات ذات الأساس الدينى الحق، بتقهقر لا تقوى على تلافيه، فلا ترتكس من حالتها المدنية إلى حالة وحشية، فتقع فى التناحر الذى لا يتفق وكرامة الإنسانية، ولكن يعتريها فتور قد ينقلب إلى جمود، ولكنك تجدها وهى فى تَيْهور من تدهورها، لا تمنى بالصفات لوحشٍ، ولا تحطم بيدها ما شيدته من صروح المدنية. ولكن تصبر على مامنيت به مع تلمس المخرج منه، ولا تزال تتحسس منه حتى تجده، فتعود سيرتها الأولى.

هذه حكمة الإسلام فى جعل أساس الاجتماع سلامة النفوس من أمراضها، ليكون قيامه رحمة للإنسانية ولها، بدل أن يكون وبالاً عليهما. ولذلك كان أثر قيام الاجتماع الإسلامى خيراً وبركة على جميع شعوب الأرض، خلافاً لقيام غيره من الجماعات، فقد كانت تنساح فى الأرض فتتخن فى الأمم قتلاً، وتوسعها نهباً، وتجوس خلال الديار فتأتى عليها حرقاً وهدماً، فتدعها قاعاً صفصفاً، عادة ذلك من علامات بطولتها، غير مبالية بما يكتبه التاريخ من سيرتها، غير مؤمنة بأن ثمرة عدوانها عدوان مثله أو أشد منه، يقع عليها من جماعة أقوى منها.

فالروح الإسلامية أجمع روح للمقومات الاجتماعية، فهى تعنى بمصلحة الفرد والاجتماع من كل النواحى عناية عادلة. ومادام الإنسان جسماً وروحاً فمن العبث أن يهمل المصلحون واحدًا منهما، ويقفون عنايتهم كلها على الثانى. فالأمم لا تصلح أجسادًا لاروح فيها، ولا أرواحًا لاأجساد لها. فإن طغت إحدى طبيعتى الإنسان على الأخرى محَّضته لها، فلا يستطيع البقاء على الأرض، ولا القيام بخلافة الله فيها. ومن الصعب التوفيق بين هاتين الطبيعتين فى حد يجعل التبادل بينهما ممكنا، والقيام بحقهما معًا مستطاعاً. وقد حل الإسلام بتعاليمه هذه العقدة، وقد درسنا كل ذلك درسا دقيقاً فى مقالاتنا السابقة تحت عنوان مهمة الدين الإسلامى فى العالم فليراجعها من أراد.

الروح الإسلامية ومدى تأثيرها[1] في النفس البشرية

- ٥ -

مقومات النظر والتعقل والتفكير

الإنسان مفطور على النظر والتعقل والتفكير، لا يستثنى من آحاد نوعه فرد واحد. وهذا سر ترقيه في العلم والعمل، والصنائع والفنون، ولولا هذه الخصائص فيه لبقي كما بقيت جميع الأنواع الحيوانية على ما كان عليه لم يبرحه قيد خطوة.

ولكن الذى يجيل نظره فى أفراده وجماعاته يرى تفاوتاً كبيراً بين ثمرات هذه القوى فيهم. فالساعة التى يراها الرجل المتمدن مجموعة من آلات دقيقة ركبت تركيباً خاصًا لتدير ثلاث إبر دورات معينة: أولاها تشير إلى الساعات، وثانيتها إلى الدقائق، والثالثة إلى الثوانى، لمعرفة أوقات الليل والنهار، يتخيلها الرجل المتوحش كائناً حيًا مستدلاً على حياتها بدقاتها المتوالية.

فالنظر والتعقل يحتاجان لعلم يغذيهما، وإلا وقعا فى أخطاء فاحشة، وتأديا إلى نتائج وهمية. وهذا العلم يجب أن يكون دائم الترقى، وإلا وقفت هذه النتائج عند حد، ووقف ارتقاء الإنسان عنده. ومن يتأمل فى تاريخ الفلسفة الطبيعية يجد عجباً عجاباً من ثمرات علمية باطلة، نتجت من استدلالات فاسدة.

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد السابع سنة ١٣٥٥ هـ، ص ٣٧٣

إن صحة الثمرات الفكرية لا تتوقف على العلم وحده، ولكن على الأصول الأدبية، والمبادىء الخلقية أيضاً. فقد تشاهد أمة بلغت من العلم مدىً بعيداً، ومن الصنائع والفنون غاية قاصية، ولكن ثمراتها الفكرية فيما يختص بالشئون العالمية قاصرة قصوراً فاضحًا. فهى ترى أن الحق للقوة، وأن العدل يتلون بألوان شتّى، على حسب المصلحة، وعلى حسب حال من يطبق عليه، إن كان أبيض أو أسود، غنيًا أو فقيراً، مواطنًا أو أجنبيًا. وترى أن الصفات النبيلة من الرحمة والعطف والإيثار ضروب من الضعف النفسانى، لا يجوز أن تمثل بين صفات الرجولة التى نتخيلها، حتى ذهب بعض غلاة الاشتراكيين إلى وجوب إبادة كل ضعيف وذى عاهة فى المجتمعات حتى لا يبقى إلا الأقوياء وحدهم، بحجة أن وجود هؤلاء الضعفاء والزَّمْنَى يضعف المجتمعات، ولو من طريق إعالتهم.

فهذه الجماعات العليمة إلى أقصى حد، تنحط كما ترى من ناحية إنسانيتها إلى أسفل دركة، ويعدو تشددها فى الأثرة على كيانها، فلا ثلبث أن تعركها الفتن الأهلية عرك الأديم، وتمخضها مخض السقاء، لتوقظ منها إنسانيتها النائمة.

أفلا يكون من أعجب العجب أن الإسلام الذى نشأ فى أبعد بلاد الله عن النظام والاجتماع والمدنية والعلم، يحتاط للثمرات العقلية كل الاحتياط، ويتخذ لها جميع المعدلات، لتأتى سديدة محكمة تنفع الجماعة التى تُقَدَّم إليهم، وتقوِّم عوج الجماعات التى تحتك بهم فى ممارستها لحياتها الاجتماعية، وليضربوا مثلاً عالميًا أعلى لما يجب أن يكون عليه النظر والتعقل والتفكير فى جميع الأحوال التى تنتاب الإنسانية، من ضعف وقوة، وفشل وفوز، وتقهقر أو تقدم.

قلنا إن الإنسان مفطور على النظر والتعقل والتفكير، فجاء الإسلام وهو دين الفطرة يفرضها على أهله فرضاً، مناقضاً بذلك الأديانَ التى تحرمها على أهلها تحريماً باتًا خشية أن تُوَصّل بعض أفرادها إلى اليقظة فيثوروا على قادتها ويحاسبوهم على ما يقترفون. فاتفق الإسلام من هذه الناحية وما يرمى إليه

العلم والفلسفة، ولكنه بزّهما باشتراطه على أهله أصولاً يقومون بحقها، وآداباً يراعونها، تكفل لهم الوصول إلى الحق، أو بالقليل لا تطوِّح بهم عنه إلى مكان سحيق، لذلك جاءت ثمرات تفكير أهله واستنتاجاتهم، حتى فى العهود التى لم تكن العلوم فيها قد وصلت إلى درجاتها الراهنة، بالغة أقصى ما يمكن أن تصل إليه من الصحة وحسن التقدير.

فالأمور الشرعية التى دوّنها الفقهاء المسلمون قبل نحو أحد عشر قرنا تبز فى عدالة أصولها، وسمو مستواها، واتفاقها والحق الطبيعى، جميع القوانين الوضعية حتى التى سُنّت فى القرن العشرين. فهل يمكن أن يقال إن الفقهاء المسلمين كانوا أعلم من فقهاء العصر الراهن بجميع فروع المعارف البشرية، فتوصلوا إلى استنباط شريعة من كتابهم وسنّة رسولهم أرقى من قوانين العصر الحاضر بحكم تفوقهم فى العلم على المعاصرين؟ هذا غير معقول، ولكن الذى يمكن أن يقال إن الأصول التى كانوا يدينون بها، والآداب التى أمروا أن يراعوها، كانت أرقى مما لأهل العصر الحاضر، فجاءت ثمرات تعقلهم وتفكيرهم أرفع درجات من ثمرات تفكير المعاصرين.

إن من يتأمل فى التشريع الذى استنبطه علماء المسلمين فى الرقّ والأرِقّاء، وفى المرأة وما يتعلق بها من حقوق طبيعية وروحية، وفى الأيتام والفقراء، وفى حقوق المحاربين والمعاهدين والأجانب والذِّمِّيين، وفى الشئون المدنية والجنائية، وفى العقوبات والتعزيرات إلخ، من يتأمل فى هذا كله يجد تفوقاً ظاهراً فى التشريع الإسلامى على التشريع الأوروبى فى القرن العشرين، وهذا خلاف ما كان ينتظر، فإن التقدم مطرد فى كل فرع من فروع المعارف البشرية، ومنها تقنين القوانين، فتفوُّق السابق منها على اللاحق بنحو ثلاثة عشر قرناً يعتبر أعجوبة الأعاجيب لمن يريد أن يفهم المسألة على أسلوب الأمور العادية، وهو مصداق لما قلناه من أن للأصول الأدبية والحالات النفسية، تأثيراً كبيراً فى تقويم النظر والتعقل والتفكير.

هذا فى الناحية الأدبية البحت، وهو فى الناحية العلمية ظاهر أيضاً لكل من يعنى بدراسته من الباحثين. فإن المعروف أن المسلمين الأولين انصرفوا إلى

تحصيل العلوم بعد وفاة النبى ﷺ بست سنين كما يعترف بذلك الأستاذ (دريبر) فى كتابه «المنازعة بين العلم والدين». فبدءوا بتدارس الفقه واللغة والتفسير والحديث والتاريخ، ولما اختلطوا بالأمم شرعوا فى نقل علومها إلى اللغة العربية، ولم يقفوا عند هذا الحد، بل زادوا فى مادتها، واكتشفوا علوماً جديدة أضافوها إليها، وما مضى على حركتهم هذه قرنان حتى أصبحوا أئمةً لها فى الأرض.

فإذا أردت أن تعرف هذه السرعة التى هضموا بها المعلومات وانتفعوا بها إلى أقصى حد، وجدتها ترجع إلى الأصول الأدبية، والمبادىء الخلقية التى أقامهم الإسلام عليها. وبيان ذلك أن الإسلام بث فى أهله حب الحقيقة وإكبارها إلى أقصى حد، باعتبار أنها هى الغاية المرجوة من الحياة، وأن ماعداها هو الضلال المحض: «فماذا بعد الحق إلا الضلال».

ويبّن لهم من ناحية أخرى أن الحقيقة بنت البحث، وأنها ليست بوقف على طائفة من الطوائف، ولا فرد من الأفراد، وأنه لا يُوصل إليها بالجمود علي الموروثات القديمة، والتعصب للآراء المقررة، وأن علي المسلم أن يتناولها ولو من ألد أعدائه، فهى ضالة المؤمن يلتقطها أنّى وجدها، وأنه ليس بعاب أن يقول الإنسان اليوم بقول ثم ينتقل عنه إلى غيره متى بدا له وجه الصواب فيه، وأن العلم إذا لم يقرن بالعمل فلاخير فيه، وأن كل علم لايقام عليه دليل فلا يصح أن يسمى علماً، وأن التقليد مذموم، فإن كان لابد من الاتباع فى العلم وجب أن يكون اتباعاً على بصيرة، لا على تسليم مجرد من البينة. وأن العلم لا حد له، وأن الإنسان أهل لأن يبلغ منه مالا يتخيله تخيلاً.

هذه الأصول القيمة التى أشربها الإسلام لأتباعه، دفعتهم لتلمس الحقيقة فى كل شىء: فى الأرض وفى السماء، وفى أنفسهم، وفيما بين أيديهم وما خلفهم، وفى بلادهم وخارج بلادهم، غير متعصبين لمذهب، ولا جامدين على رأى، ولا واقفين عند حد. فبهذه الروح المتوثبة درسوا كل فلسفة، وحللوا كل مذهب، فلم يقفهم عن الأخذ بأحسنها أصل من كتاب، ولا مبدأ من سنة، بل قد تحروا الأحسن منها مدفوعين بأصول كتابهم، ومبادىء سنتهم، فإذا اعترضهم نص منهما تخيلوا فيه نقضاً لما قامت لهم

الأدلة العقلية والطبيعية على صحته، صرفوا ذلك النص عن ظاهره بحكم أصولهم الأولية، لا تلاعباً منهم بمقرراتهم الدينية. لذلك ذهب المسلمون الأولون مذهب العلوم فى كل ما قررته، غير مقيدين بقيد، ولامرتبطين بشرط، فتأدوا إلى أبعد مما وصل إليه الذين كانوا قبلهم بمراحل لاتكاد تحصى. وقد أثبت مؤرخو الغرب أنهم وصلوا إلى نظرية تحوّل الأنواع بعضها من بعض، وقتلوها بحثاً وتفلية، وسرّوها حتى على المعادن، أى زادوا على ماذهب إليه الغربيون من وقفها عند حد الأحياء. وقد ثبت رأى المسلمين أخيراً، فقد ظهر أن العناصر المعدنية المعروفة اليوم متحولة بعضها عن بعض، وأن الفلزات أجسام مركبة لا بسيطة.

أين هذه الحرية العلمية المطلقة، من القيود الحديدية التى كبل بها رجال الدين فى أوروبا الباحثين أيام كانت لهم السلطة العليا فيها. فقد اختاروا أولاً مذهب أفلاطون وتعصبوا له كل التعصب، وأوقعوا بالذين يفضلون عليه مذهبًا آخر أشد العقوبات. ثم غيّروا وبدلوا فى مذهب أرسطو، واتخذوه قاعدة لبحوثهم، وتشيعوا له تشيعًا عظيمًا حتى كانوا يسومون الذين يناهضونه أشد العذاب.

أما المسلمون الأولون فإنهم لما درسوا هذين المذهبين تخيروا أولاهما بالتعويل عليه، غير مقيدين بقيد، ولا مأخوذين بشرط، فوقع اختيارهم على مذهب أرسطو لأنه يعول على التجربة، ويؤدى إلى نتائج عملية، دون الأول، فإنه عقلى محض، وربما تخطاه إلى الخيال وما إليه.

يتبين مما مر كله أن للأصول القويمة، والمبادىء الأدبية، تأثيراً كبيراً على صحة النظر والتعقل والتفكير، وقد رأيت أنها أدت المسلمين إلى درجة من التفوق لم تنلها أمة قبلهم ولابعدهم، على قلة المادة العلمية فى عهدهم، بالنسبة إلى الموجود منها فى العصر الحاضر.

إن نظرية التفاضل بين القوميات، وبين أصحاب الألوان والأديان، وبين أصحاب الألقاب، لاتزال سائدة فى العالم المتمدين ومعمولاً بها فى التقنين والتشريع، وقد هدمها المسلمون وعفّوا على آثارها وعدوها من بقايا الجاهلية منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً؛ عملاً بأصول كتابهم وسنة رسولهم. فتأمل إلى أى مستوى من السمو تصل صحة النظر والتعقل والتفكير رغماً عن قلة المادة العلمية، تبعًا لسمو الأصول، ورفعة المبادىء الأدبية.

يجب أن يعرف المسلمون هذه الخصائص لدينهم، وأن يشبعوها شرحًا، ويوفوها بحثًا، وينوهوا بها فى مشارق الأرض ومغاربها، فهى على طرافتها حقائق فلسفية لا يجوز أن يغفلها الباحثون فى تاريخ العقلية الإنسانية وتاريخ المبادىء والأصول.

وبعد: فهذا وجه من وجوه الروح الإسلامية ومدى تأثيرها فى النفس البشرية، وهو تأثير لو وصفته بأنه عظيم لهضمته حقه، فإنه إن كان الإنجليز يفخرون بأنهم شعروا بالروح الدستورية من لدن القرن الثالث عشر الميلادى، وشرعوا يطبقون نظمهم عليها فى خلال العصور، حتى أتموا دستورهم فى القرن السابع عشر، وإنه إن كان الفرنسيون يتيهون بأنهم قرروا الحقوق الطبيعية للإنسان فى أواخر القرن الثامن عشر، فماذا يفعل المسلمون وقد بلغوا إلى أوج المبادىء الدستورية، وانتهوا إلى أبعد غايات الحقوق الإنسانية قبل غيرهم بنحو ألف ومائتى سنة؟

نعم إنهم لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه اجتهادًا منهم، ولكن بواسطة الوحى الإلهى، فإن كان ليس لهم أن يتيهوا ويفخروا بالوضع والابتكار، فلهم أن يتيهوا ويعجبوا بأنهم أول من عملوا بهذه المبادىء فى الأرض.

الروح الإسلامية ومدى تأثيرها[1] في النفس البشرية

- ٦ -

مقومات علاقات الإنسان بالعالم الخارجى

إذا أطلق لفظ العالم أريد به كل ما هو موجود من الكائنات . والإنسان وإن كان لا يكاد يحسب له حساب من ناحية الحيز الذى يشغله فإنه بما منحه من الخصائص العقلية والروحية، بمكانة ممتازة منه. فإذا لم يكن هو أرقى الكائنات العاقلة على الإطلاق فهو من أرقاها لا محالة. وقد أفرد كثير من علماء أوروبا البحث فى مكانة الإنسان من العالم بالتأليف، حتى إن الداروينيين الذين يقولون بتحول الإنسان من حيوان أدنى منه، لا يضنون عليه بهذه المكانة الممتازة، وإن كانوا لا يؤمنون بوجود روح فيه مستقلة عن المادة، ومتنزلة من عالم أرفع منها.

وقد اعتبر العلماء الطبيعيون ثبوت علو مكانة الإنسان فوزاً كبيراً لهم على الأديان، فقد زعموا أنها تحقر من شأنه، وتحط به إلى ما لا يتناسب ومواهبه السامية، وتعمل على إذلاله بضروب من التكاليف الشاقة تحت اسم العبادات، وتحاول الأستيلاء على ضميره بما تصوره له من صور الثواب والعقاب فى دار بعد هذه الدار.

---

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد السابع سنة ١٣٥٥ هـ، ص ٥١٧.

وهذا تجرُّم ظاهر من خصوم الأديان، فإنها قررت جميعاً أن الإنسان من روح الله، وليس بعد هذا رفع لمكانة مخلوق فى هذا العالم. فإن آنس هؤلاء الخصوم بعد هذا تكاليف شاقة فرضت على بعض طوائفه، وتقاليد مذلة حتم عليها القيام بها، فذلك من وضع زعمائها وقادتها، إما خطأ منهم فى تقدير قدر الفطرة الإنسانية، وإما جريًا وراء مطامع لهم لا تنال إلا من ناحية تسخير الشعوب لإرادتهم.

وإذا وجد هؤلاء الخصوم كلاماً يقولونه من هذه الناحية فى جميع الملل، فإنه يعز عليهم أن يجدوه فى الإسلام، اللهم إلابهتاناً وتجنياً.

الإسلام كسائر الأديان السماوية يقرر بأن الإنسان خلق من الطين، ونفخ فيه من روح الله، ولكنه يزيد عنها فى الإشادة بسموه، وفى تعليل هذا السمو، وفى تحديد مدى سلطانه على العالم الخارجى، بما يتناسب والمعلومات العصرية الحاضرة، ويتماشى وإياها جنبا إلى جنب.

وقد ذكر الله كل ذلك فى كتابه الكريم، فنقتبسه منه، ونشرح منه ما يستدعى الشرح، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١).

(١) البقرة: من ٣٠ إلى ٣٤.

هذه المحاورة تمثيل لما جاش فى صدور الملائكة عند خلق الله للإنسان، وليست هى كما يدل عليه ظاهر الألفاظ جدالاً بين الله والملائكة لأنه يقتضى ما ينافى التنزيه الذى جاء به الإسلام.

ومؤدها أن الملائكة عند ما علموا بوشك خلق الله لكائن يجمع بين طبيعتين متناقضتين إحداهما سفلية أرضية والأخرى علوية روحانية، أدركوا أنه سيكون متنازعاً بين دواعيهما، فيميل تارة إلى هذه وتارة إلى تلك، وفى الميل إلى السفلى الفساد على ضروبه وسفك الدماء، ومثل هذا الكائن كيف يصح أن يكون خليفة لله فى الأرض؛ أى مكلفاً بتحقيق مقاصده فيها؟ فأجابهم مجيب من صميم معرفتهم بالله، أنه يعلم ما لا يعلمون.

وتلا هذا أن خلق الله آدم، وطبع فى صميم معناه كل ما هو مستعد له النوع الإنسانى من الرقى الصورى والمعنوى، والسمو الروحى والمادى، فلما تبين الملائكة ذلك، قالوا: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. وأكبروا شأن الإنسان، وأدركوا أنه أهل لخلافة الله فى الأرض.

فأنت ترى من هذا مبلغ تشريف الله لقدر الإنسان، وسمو الفطرة التى فطره عليها، وبعد الغاية التى خلقه لها. فهو معتبر فى الإسلام بأنه خليفة الله على العالم الذى وجد فيه، يسير فيه سيرة المرشد المربى، الممهد له طرق الترقى، وأنه أهل لأن يبلغ شأواً يبز فيه الملائكة، ويكون فيه أهلاً لتبجيلهم وتعظيمهم باعتبار أنه أرفع درجة منهم، وأنه قد دفع به إلى ترق مادى وأدبى لا يقف عند حد، بحيث يرى الملأ الأعلى أن النظر إليه من موجبات تسبيح الله على سمو جبلته.

وقد نبه الله فى كتابه إلى أن سمو هذه الفطرة الإنسانية قد اقتضى أن تستند إليه المهام التى تقتضيها الخلافة الإلهية فى الأرض، فقال الله تعالى:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

(١) الجاثية: ١٣.

فهذه الآية الكريمة تشير إلى بعد مدى سلطان الإنسان على العوالم المادية، إذ ليس بعد تسخيرها له مرمى فى تسليطه عليها، ومثل هذا القول من المعجزات الفلسفية للكتاب الإلهى، فلم يقل به أحد قبل القرن التاسع عشر من الناحية العلمية. فقد اعتبر الكون دائما مجهولاً مزعجاً، وقد ألّه قواه المختلفة الأقدمون وعبدوها. وكان الإنسان منذ زمان قريب إذا سمع جلجلة الرعد، وهزيم الرياح،ولمح وميض البرق، أخذته رعدة وكاد يصعق فرقاً. ولكنا آنسنا أن الإنسان كما سخر الماء والنار وذلل الكهرباء والبخار، وكبح جماح الأهوية والبحار، عامل على تسخير بقية العوالم، فما لا يصل إليه بحواسه المجردة، صوّب إليه من آلاته وأدواته ما يقتاده خاضعاً مستسلماً.

هذا السلطان العظيم الذى استتب للإنسان فى هذا العالم، قد كشف عنه الإسلام قبل أن تظهر بوادره، بل قبل أن يطمئن الإنسان على وجوده فى الأرض، وهو ما كشف عنه وأحاطه بضروب من الإكبار، إلا وهو معتبر إياه حقا صريحا للإنسان، بل مظهر ما غرسه فى صميم معناه من القوى المؤدية إليه. فلا نقول والحالة هذه إن الإسلام يسمح بأن يشتغل الإنسان فى ترقية المحسوسات وإيصالها إلى كمالها، ولكنا نقول إنه مخلوق لذلك بحكم الفطرة التى فطره الله عليها، وعدّه بسببها خليفة له فى الأرض.

فالمسلم الذى يتلو القرآن حق تلاوته، ويتبع سبيل المؤمنين قبله، يتأدى حتماً إلى مثل ما تأدوا إليه من الترقيات الصورية والمعنوية، وبالعمل المتواصل فيها، كما عمل آباؤه حتى بلغوا غاية من الارتقاء لم يصل إليها أحد من قبلهم.

كثيراً ما عجب الباحثون من شدة نهم المسلمين فى الأخذ بكل ما وجدوه صالحاً ونافعاً فى الأمم التى احتكوا بها، ومن سرعة ما هضموه وتمثلوه غير مفرقين بين مصادره مادام خيراً محضاً، أو مادام خيره أكثر من شره، حتى جمعوا بين ما لم يكن مجموعاً قبلهم من علوم أمم كان بينها بعد المشرقين، ومن صنائع وفنون كانت معروفة عند قوم ومجهولة عند آخرين، فلو كانت أمة تدين بالمادية الباحتة لما استطاعت أن تبلغ شأو المسلمين الأولين فيما بلغوه فى

سنين معدودة، فما ظنك وهم مع ظهورهم بهذه النهمة المفرطة للعلوم والصنائع والفنون كانوا يمثلون أرقى ضروب المتدينين الصادقين، حتى قيل إنهم بزوا العالم أجمع فى شدة تمسكهم بالدين، وسلوكهم طريق الزاهدين المخبتين.

حل هذه المسألة لا يعسر على العارف بالإسلام ولايستدعى الإطالة فى القول، ذلك أن القرآن صرح بأن فى الإنسان من قيوم السموات والأرض نفحة روحانية، ظهرت بأجل المظاهر وأكبرها شأناً فى العقل والتفكير، وفتح آفاق بعيدة فى العلم والمعرفة، وعدم وقوفه عند حد من النظر والاستدلال. وفى شعوره الصميم بأنه أرفع من هذا العالم المادى المحسوس.

وقد نصّ الكتاب فوق هذا بأنه قد سخر له ما فى السموات وما فى الأرض، وأن الله قد أقامه خليفة له فى هذا العالم، فكل هذه الأصول تزيد ارتباطه بالعالم الخارجى، وتورطه فى شئونه، لا ارتباط الجزء بالكل فحسب، ولكن زائداً عليه شعوراً بالهيمنة والسلطان، فلا غرو أن ينظر كل مسلم إلى الكون نظر الخليفة فيما وكل إليه أمره، لسيتطيع أن يضطلع بمهمته، فتراه مضطراً لسبر غور كل غامض من غوامضه، وتقدير بعد كل غاية من غاياته، وتحليل تركيب كل كائن من كائناته، متأثراً بدافع العجلة، لأن قصر مدى الحياة لا يناسبه التسويف والتلوم.

هذا هو السبب الحقيقى الذى جعل المسلمين الأولين العاملين بالدين، يتذرعون بهذا النهم المفرط لتحصيل المعارف والعلوم، والإلمام بالصنائع والفنون، مما لم يكن معروفاً لديهم، ثم الاشتغال بدرسها وتمحيصها وزيادة مادتها والتطوع لنشرها بين الناس كافة. وفيه دليل عملى على أن المقومات التى وضعها الإسلام لتنظيم العلاقات بين الآخذين به والعالم الخارجى هى أرقى المقومات وأكرمها وأكثرها بركة.

نعم إن الإنسان مدفوع بدواعى الحاجة إلى تعرف أسرار الموجودات

والاستفادة منها، فهو ليس فى حاجة لمن ينبهه إلى ذلك، ولكن هناك فارقاً بين من يندفع فى هذه السبيل بواسطة الحاجة المادية، ومن يملكها محفوزاً فوق هذا الدافع بدافع أرقى منه، وأعلق بالنفس، وهو أنه فى عمله فيه يقوم بخلافة مبدعه عليه، والخلافة تقتضى الهيمنة، والتنظيم، والتربية، والتكميل كما قدمنا. وكل هذه الصفات تقتضى أن يعتصرها الإنسان من غرائزه، وأن يستثيرها من أعماق طبيعته. فهل تعجب بعد هذا من قول التاريخ إن المسلمين كانوا أشد الأمم عملاً فى استغلال الطبيعة، وتسخير قواها، والإبداع فيها، وأنهم فى الثلاثة القرون التى كانوا عاملين فيها بدينهم قد جلبوا للإنسانية من الخير العام ما لم تجلبه لها الأمم كلها مجتمعة.

ومما يجب لفت نظر القراء إليه أن المسلمين أسّسوا علاقاتهم بالوجود الخارجى على ما ذكرنا، وتكلموا فى كل منحى من مناحى العلم، وجالوا فى كل مجال من مجالات الفلسفة، ولم يصطدموا بالدين فى أية مسألة من المسائل التى توهم فيها ظواهر النصوص الكتابية، خلاف ما تثبته المقررات العلمية، وهى العقبة التى اضطرت الكنيسة فى أوروبا إلى منع البحث العلمى أكثر من ألف سنة أى من القرن الخامس إلى السادس عشر. فهذه ميزة للإسلام لم يُثبت تاريخ العالم لها نظيراً لأمة من الأمم.

الروح الإسلامية ومدي تأثيرها في النفس البشرية

-٧-

مقومات العاطفة الاعتقادية في الإسلام

الإنسان محمول بفطرته إلى اتخاذ عقائد دينية له، وهذه العقائد يتناولها أكثر المتدينين من آبائهم، وقادة أديانهم، من طريق التقليد دون نقد ولاتمحيص. ولكن الإسلام حرم على أهله هذا الضرب من توارث العقائد، فشرط أن يكون أساسها العقل، وسنادها الدليل. وهذا ما لا عهد للإنسانية به إلا فى العلوم الكونية بعد الإصلاح الخطير الذى أحدثه فيها العلامة الإنجليزى الكبير بيكون من لدن القرن السابع عشر، فخرجت المعارف الإنسانية بهذه الوسيلة من حيز الظنيات إلى حيز اليقينيات، فما أحدثه هذا العبقرى الإنجليزى من التمحيص فى مجال المعارف المادية، سبقه الإسلام إليه بأكثر من ألف سنة فى عالم المعتقدات الدينية.

فليس على مسلم بموجب هذا الأصل الإسلامى أن يتناول عقيدة من كائن من كان دون أن يعقلها، وأن يستطيع أن يدلل عليها، حتى ساغ لأهل الأصول من المسلمين أن يقرروا أن إيمان المقلد لايقبل منه.

هذا حدث جلل لم يكن يخطر لأحد على بال من أهل الأجيال السالفة، ولا يزال يجهله غير المسلمين ويظنون أن الإسلام دين كالأديان المعروفة.

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد السابع سنة ١٣٥٥هـ ، ص ٥٩٧.

لقد أشبعنا هذا الأصل الإسلامى بحثاً فى مقالاتنا السابقة تحت عنوان (مهمة الدين الإسلامى فى العالم)، فإن كنا نعود إليه الآن فذلك لبيان مقوماته، فإن له مقومات تحفظ كيانه، وتكفل ترقيه وكماله.

لأن العقل فى ذاته وإن كان خاصة طبيعية من صفاته التميز بين الحق والباطل، والحسن والقبيح، ولكنه فى حاجة إلى نور يستمده من الخارج، تظهر له به الأمور على ماهى عليه فى الواقع، فما كل ماظهر لأول وهلة أنه حق حقًا، ولا كل ماتبادر إلى الذهن أنه باطل باطلاً، ولا كل ما لاح أنه حسن حسناً، ولا كل ما أوهم مظهره أنه قبيح قبيحًا.

ولو كانت هذه الخاصة تدرك الأشياء على حقائقها دون حاجة إلى ما يقومها ويكملها، لما شجر بين الناس خلاف على معقول قط، بل لما تنازعوا على شىء أصلاً، ولا كان هنالك تفاوت بين ذوق وذوق، ولا بين نظر ونظر.

فالعين خاصتها المميزة رؤية الأشياء على ماهى عليه فى ظاهرها، ولكنها فى حاجة إلى نور خارجى يبين لها الأشياء فى مواضعها، ويظهر تفصيلاتها، ويشترط أن يكون ذلك الضوء خالياً من الشوائب، وكافيًا لإظهار جميع الدقائق. فما كل مايلوح فى الغبش أنه حسن حسنًا، ولا أنه قبيح قبيحًا.

وهنالك ما هو أدق من هذا تأثيرًا فى تقدير الحسن والقبح، وهى الخصائص الذاتية والمزايا التبعية، فالمرارة تعتبر قبحًا، ولكنها فى العلاجات المفيدة بمرارتها تعتبرحسنًا، وإذا اشتدت صارت غاية فى الحسن. والحلاوة تحسب حسنًا، ولكنها إذا اشتدت حتى أحدثت غثياناً وقيئًا عدت قبحًا، وإذا أفرطت اعتبرت نهاية فى القبح.

فخاصة العقل بحكم وظيفتها فى التفرقة بين الأمور الفاضلة والرذلة، والشئون النافعة والضارة، فى حاجة ماسة إلى المقومات الذاتية، والمقومات الخارجية. فالمقومات الذاتية المعارف على جميع ضروبها، والتجارب على

اختلاف مواضيعها، فإن العقل الخاوى من العلم والمجرد من التجارب، يتعقل الأشياء تعقلاً ساذجاً، ويميز بين الحسن والقبيح تمييزاً سطحيًا، ولكن أيستطيع أن يفرق بين حق وباطل، أو بين حسن وقبيح تفرقةً صحيحة؟

إذا كان ذلك ممكنًا لما اختلف الناس فى عقائدهم وشرائعهم ومبادئهم على النحو الذى هم عليه اليوم.

لذلك عنى الإسلام بأمر المقومات العقلية بنوعيها كل العناية، بقدر ماعنى بنصب العقل حكَماً بين ما هو حق وباطل، وحسن وقبيح، وخير وشر.

فأما من ناحية المقومات الذاتية فقد حثّ على وجوب طلب العلم، فقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1].

وعلل هذه العناية منه بوجوب طلب العلم بأن العلم يوجد لأهله مزايا يتجرد منها المحرومون منه، وهو يريد أن يكون للآخذين به جميع المزايا التى يمكن أن يتمتع البشر بها، فقال تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

وصرح بأن بين المؤمن الجاهل والمؤمن العالم درجات، فقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[3].

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾.

بالنصر وحسن الذكر فى الدنيا، وإيوائهم غرف الجنان فى الآخرة. ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾.

---

(١) طه : ١١٤.
(٢) الزمر: ٩.
(٣) المجادلة : ١١

ويرفع العلماء منهم خاصةً درجاتٍ بما جمعوا من العلم والعمل. فإن العلم مع علو درجته يقتضى العمل المقرون به مزيد رفعة. ولذلك يقتدى بالعالم فى أفعاله ولا يقتدى بغيره. وفى الحديث: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»

نقول: وقد قدر ابن عباس رضى الله عنه هذه الدرجات بسبعين درجة.

وقد حضَّ الإسلام ذويه أيضاً على إجالة الفكر فى الأمور، وتناولها بالبحث والتقدير، وحرضهم على النظر فى الكون والكائنات وتنور أسرارها، واستكناه مساتيرها، واعتبر ذلك أفضل من العبادة بالجوارح، فقال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(١).

وقال: ﴿ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢).

و ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾(٣). وكرر ذلك فى عشرات من الآيات.

وورد فى الأحاديث النبوية تحضيض شديد على التفكير، حتى جعله النبى ﷺ خير ضروب العبادة، فقال: «فكْر ساعةٍ خيرٌ من عبادة سنة».

وقد شفع الإسلام هذا التحضيض على التفكير ببيان النواحى التى يجب توجيه الفكر إليها، وهى:

(١) الوجود فى جملته، فقال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(٤).

---

(١) آل عمران: ١٩١

(٢) الرعد: ٣

(٣) طه: ١٢٨

(٤) يونس: ١٠١

وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾(١).

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾(٢).

(٢) الكائنات الأرضية من جمادية ونباتية وحيوانية، والتأمل فى صورها وأشكالها، وطبائعها وأسرار وجودها. قال الله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا (أى رطبا)، وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ (أى ذات أشجار غليظة) وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾(٣).

وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٤).

قال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾(٥).. إلخ.

(٣) الإنسان، تكوُّنه فى الرحم وميلاده وأطواره وأحواله ونفسه، قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾(٦).

(١) يوسف: ١٠٥.
(٢) الأعراف: ١٨٥.
(٣) عبس: ٢٤ ـ ٣٢
(٤) الأنعام: ٩٩.
(٥) الغاشية: ١٧ ـ ٢٠.
(٦) الذاريات: ٢٠ ـ ٢١.

وقال:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾(١).

وقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾(٢).

وقال ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾(٣)

فهذا ومئات من أمثاله فى الكتاب الكريم يوقظ فى النفس غريزة النظر فيما بين يديها وما خلفها، ويثير فيها رغبة ملحة لكشف المساتير واستجلاء غوامض الخليقة، فتجد فيها مادة العقل غذاءً لها يبلغها غاية ما تصل إليه من قوة التحليل والتركيب للمعقولات، فلا تؤخذ بظاهر خلاب، ولا عرض فاتن، فإذا أرادت الحكم على الأشياء ردها عن الانخداع بالظواهر ما تمرست به من النفوذ إلى السرائر، والغوص لاستخراج الحقائق.

ولم يكتف الإسلام بهذا من مقومات العقل، فدفع بالآخذين به إلى مخالطة الأمم، ومعاملة الشعوب، وحفزهم إلى التجوال فى الأرض، والضرب فى أكنافها، ودراسة أحوال الجماعات البشرية، والنظر فى شئونها، من قوة وضعف، وعزة وذلة، وارتقاء وجمود، والبحث عن أسباب ذلك وعلله، من أمورها الراهنة، وتاريخها الماضى، وتقدير ذلك بالمعايير العلمية، وقياسها بالمقاييس الحكمية، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ

---

(١) الأنعام: ٩٨

(٢) الطارق: ٥، ٦، ٧

(٣) المؤمنون: ١٢، ١٣، ١٤

﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(١).

وقال: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾(٢)

وصرح جل وعز بأن ثمرة هذه السياحات كشط ما على القلوب من ظلمات الجهالة، وما على العقول من غاشيات الغباوة، وإزالة ما علق بالنفس من ران العماية، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾(٣).

لم يدع الإسلام هدفاً من أهداف النظر، ولا موضعاً من مواضع الاستبصار، ولا عاملاً مما يوقظ غريزة التأمل، وينبه خاصة التفهم، إلا دعا إليها واستنهض الهمم للتنافس فيها، كل ذلك منه ليطوف بالعقل فى جميع أدوار التربية والنمو، فيبلغه النضج الذى يصبح معه قادراً على الحكم على ماهو حق وماهو باطل، وما هو حسن وما هو قبيح، حكمًا يكون هو الصواب كله أو قريبًا منه.

والذى يتتبع وصايا الإسلام وتعاليمه يجده لم يهمل وجهاً من وجوه تربية الإنسان هذه التربية الأدبية إلا نبه ذويه إليه، وحضهم عليه، حتى مايتوهم بعض الناس أنه لا علاقة له بها، كالرياضة البدنية، من المصارعة، والمضاربة بالسيف، والسباحة، والمسابقة على الخيل، مما قد يدفع بعض خصوم الإسلام أن يقولوا: ما لهذه الألاعيب والدين الذى يستدعى الوقار وحسن السمت والخشوع؟ ويغيب عنهم أن هذه الرياضات التى يسمونها ألاعيب لاتنافى الوقار

---

(١) الروم: ٩

(٢) الأنعام: ١١

(٣) الحج: ٤٦

والـمت الحسن والخشوع ولا أرقى مظاهر التقوى، ولكنها تعين عليها بفهم وتعقل وحنين صادق، بما توجده للجسم من الصحة الكاملة، وما تقتضيه من مراس عقلى وتدبير فكرى، وخروج عن عوامل التحجر الجسدى والأدبى، التى تعترى الذين يكرهون الحركات الجسمية، ويألفون تمضية حياتهم بين جدران دورهم ومعابدهم. فإذا كان القصد من الدين تكميل الإنسان حسا ومعنى، فهذه سبيل هذا التكميل، وهذه أساليبه، هُدِى إليها البشر من طريق العمل، ونزل بها الوحى الإلهى قبل عصر العلم خاتم أنبيائه ﷺ.

يقول خصوم الإسلام: إن الإسلام دين مادى يحض على العمل، وعلى الضرب فى الأرض، وعلى كسب المال، وعلى الفتوح والتوسع فى الأرض، وغاب عنهم أن الإسلام دين أوحى ليعتَقَد ويُعْمَل به، لا ليعتقد ويلقى به فى زاوية باعتبار أنه لا يمكن القيام عليه.

وما رقى الإسلام من كل ذلك إلا لتحتك الناحية الأدبية من الإنسان بكل ما يمكن أن يصقلها، ويتصفى جوهرها، بتورطها فى مضايق الحياة ومآزمها، وتَمَرُّسها بأحداثها وجوائحها، فإذا اجتازت كل هذه القواطع خرجت منها متكملة جميع الشرائط الصحية، حاصلة على جميع خصائصها الطبيعية، ناضجة نضوجًا يؤهلها لبلوغ جميع غاياتها الروحية.

الروح الإسلامية ومدى تأثيرها[1] في النفس البشرية

- ٨ -

المقومات الخلقية

خلق الله الكائنات الحيوانيةَ وطبع جنس منها على ما به تصان حياته الشخصية والنوعية، وما عليه تقوم سعادته النفسية والمادية، فهو يجرى من محاولاته على قانون لا يتعداه، وسنة لا يستطيع عنها حِوَلا، إلا الإنسان فإنه لقيام أمره على التعقل والاسترشاد، ولارتباط كماله بتحرى الأصلح والأفضل من الأمور، أطلقت له حرية النظر والاستدلال والاختيار. وما خلقه الله على هذا النحو إلا لأنه قد بنى وجوده على الارتقاء والسمو إلى درجات لا يصل إليها الخيال، فى كل ضرب من ضروب الكمالات الصورية والمعنوية، حتى إن أبعد المتأملين خيالاً عجزوا عن معرفة الحد الذى يقف عنده فى تدرجه إلى الكمال.

وكيف يصلون إلى معرفة هذا الحد، وقد منح قوى عقلية وروحانية لا يمكن تقديرها بحال من الأحوال. فهو كلما وصل إلى غاية تراءت له غايات أبعد منها، وتيقظت فيه عوامل جديدة للوصول إليها، ما كان يتخيل وجودها فى نفسه. حتى قيل إن كل ما يروى عن الخوارق التى تحدث على أيدى أفراد من الممتازين، ستصبح أموراً عادية لأهل الأزمان المستقبلة، فيقرأ بعضهم مايجول فى ضمائر بعض، ويعرف أحدهم ما يفعله صاحبه وهو على بعد آلاف

(١) مجلة الأزهر - المجلد السابع سنة ١٣٥٥ هـ، ص ٦٦١

من الأميال، ويأمر القوى الطبيعية فتطيعه صاغرة، ويرى بقلبه ما وراء الحوائل الكثيفة إلخ إلخ، ويكون وهو فى هذه الحالة قد بلغ من السمو الروحانى إلى درجة لا يفترق بها عن سكان الملأ الأعلى فى شىء.

ونحن لا نتعرض لهذه التخيلات بتصديق ولا تكذيب، ولكنا نلفت القارئ إلى ما تشير إليه من توقع الدرجات العلى للإنسان، من جراء ما تبين للباحثين من سمو القوى التى منحها، وكان من أثرها فى آماد قصيرة الوصول من الناحية المادية إلى الدرجة التى وصل إليها الآن، ومن الناحية الروحية إلى مايروى عن الآحاد الذين عنُوا بتربية أنفسهم على الأساليب الدينية الصحيحة.

هذا كله أثر الأخلاق والآداب التى يتبعها الإنسان فى تدبير القوى المودَعة صميم معناه. أقول فى تدبير القوى، لأن الأخلاق والآداب المجردة من هذا التدبير لا تثمر شيئاً أكثر من حسن السمت، ولطف المعاشرة، وهذا ليس بكبير الخطر فى حياة الأمم، ولا هو مما يغنى عنها شيئاً فى مواقفها حيال الطبيعة، وحيال الجماعات التى تنازعها الوجود والغَلَب. فالإنسان كما يطلب منه أن يكون على ضرب من الأخلاق إزاء معاشريه ومواطنيه، كذلك يطلب منه أن يقوم على ضرب آخر منها أمام الجوائح الطبيعية المساورة به، وحذاء الجماعات التى تزاحمه فى مضمار الحياة. وهو إن انقاد لمجرد ميوله الفطرية فى هذه الأمور، فلا يتأدى إلى أكثر مما تأدت إليه الطوائف الساذجة فى أول وجودها على الأرض، من تأليه القوى الطبيعية والاستخذاء لأفاعيلها، وبذل الجهد كله فى مكافحة الجماعات المعادية لها، والعمل المتواصل على إبادتها أو الفناء فيها.

هذا كل ما تعطيه الميول الفطرية غير المقوَّمة تقويماً علميًا، وقد استمر الإنسان على هذه الحال قروناً لا تحصى حتى ولد العلم، فعيّن موقف الإنسان من الطبيعة ومن الجماعات الإنسانية، كما عيّنه من المجتمع الذى يعيش فيه، وألزمه فى كل موقف من هذه المواقف أخلاقاً وآداباً تناسب القوى العليا المودعة صميم معناه الإنسانى.

هذا ما يفهمه العلم من كلمتى أخلاق وآداب، أما ما يفهمه البعض منهما

وهو ما يقتصر على المخالطة والمعاملة، فهو ناحية صغيرة من نواحيها، وليست بذات أثر كبير فى وجودها وترقيها. فلو قامت أمة من أخلاقها وآدابها على مثل ما عليه للكَمَلة الأطهار، ولم توسع من دائرة هذه الأخلاق والآداب حتى تشمل سيرتها مع الكون الذى تعيش فيه، والجماعات التى تنازعها العيش، هان أمرها على أصغر أمة تعنى بهذه الناحية الثانية من الأخلاق، وليست من الناحية الأولى على شىء.

فكم قبيل على مثل ما عليه الوحوش الضارية من الخشونة والتجرد عن الأخلاق، داهموا قبيلاً آخر فى أسمى درجات الآداب، فأذاقوهم صنوف الويل، ومزقوهم شر ممزق، وجعلوهم أحاديث.

وكم أمة لا يراعى آحادها الأصول الأدبية المثلى، ولكنهم على أصول قويمة حيال الوجود والأمم، قد وصلوا إلى قمة المدنية المادية، ومدوا سلطانهم على مساحات واسعة من الأرض، وبجوارهم أمة لاهُم لها إلا تدارس الآداب وتطبيقها وهى لا تغنى عن أنفسها فتيلا.

من هذا التناقض نشأت شبهات قوية على الحكم الأدبية، وعلى الأديان معًا، ونجمت مذاهب سقيمة على معنى الحياة، حتى لقد ذهب المتطرفون منهم إلى أن التقيد بالأخلاق الفاضلة، والآداب العالية، يعطل من نهوض الأمم ويعرقل حركاتها إلى الغايات القاصية من المدنية المادية. فزعموا أن إطلاق العنان للشهوات يدفع بالنفوس لطلب المزيد من المتع الجسدية، وهذا الإطلاق يحفز إلى التوسع فى استغلال المادة، وإلى التفكير فى وجوه تسخير قوى الكون للإرادة البشرية، وهذا لا يكون إلا بدراسة العلوم وتطبيقها على العمل، والتنقيب عن المساتير وحل معمياتها، فجملة هذه الحركات النفسية والعلمية يدفع بالمدنية إلى الارتقاء، والتحليق فى أرفع آفاق الإبداع.

هذه شبهات يظنها هؤلاء الإباحيون حججاً لتبرير مذهبهم، والحقيقة أن المدنية ليست مدينة لواحد من هؤلاء الشهَوانيين بشىء، وما دعّم قواعدها وأقام صروحها من علم وعمل وفن، غير أفراد من خيار هذا النوع كانوا على جانب

كبير من الاستقامة والنزاهة، واصلوا أبحاثهم غير مدخرين مالاً ولا صحة، وكثير منهم ذهبوا ضحايا لإخلاصهم لتجاربهم. وأمثال هؤلاء يوجدون فى كل مجتمع تتوافر لهم فيه شروط الحياة وحرية العمل. وإذا كان لثمرات قرائحهم خطر يهددها بالاجتياح، فهو من ناحية أمثال هذه المذاهب الإباحية. فقد تسلطت على مدنيات اليونان والرومان وغيرها فأبادتها، وجعلتها أقاصيص.

وإذا كان لا يمكن تقدم مادى دون حافز شهوانى، فكيف نشأت المدنية الإسلامية الباهرة فى بيئة كلها أخلاق وآداب وسمو روحانى، حتى صارت أساسًا للمدنية الأوروبية الحاضرة؟ وهذه المدنية الحاضرة هل يتوقع علماء الاجتماع تطرق الخراب إليها إلا من تفاقم شر الشهوات فيها، كما صرح به كبار قادتها ونقلناه عنهم فى هذه المجلة؟

فالأخلاق لأجل أن تكون كاملة، وحاصلة على جميع مقوماتها الضرورية، يجب أن تكون شاملة لكل ضروب المعاملات، والإنسان لم يُطلب منه أن يعامل معايشيه ومواطنيه فحسب، ولكن يُطلب منه أن يعامل من يتصدى لمعاملته من الناس كافة، بل مايعرض له من الكائنات كافة، فهو قبل أن يُدعى لمعاملة مواطنيه دُعى لمعاملة نفسه وجسمه، وما يحيط به من الموجودات، ولما تعلقت حاجاته بمخالطة الأمم، والنظر فى الأجرام السماوية، والعناصر الأرضية، تبينت له الحاجة إلى نظام عام شامل من الأخلاق والآداب يستهدى به فى كل هذه الضروب من المعاملات التى تدعوه إليها حياته وارتقاؤه.

وقد كفل الإسلام إقامة صرح هذا النظام الخلقى العام على أقوى أساس من العلم والعمل، حتى لا يتطرق الوهن إلى بنية جماعته من أية ناحية من النواحى، وحتى يصلح شطره المادى لحماية شطره الروحانى، فلا يكون عرضة فى كل دور من أدوار الاجتماع لأفاعيل الانقلابات الفكرية، والتطورات النفسية. فقرر للإنسان حيال كل ما يعرض له أخلاقاً وآداباً. فمما جعله له منها مع نفسه، أن لا يهينها ولا يعرضها للأمراض النفسانية، وأن يعمل على السمو بها إلى أعلى درجات الطهر والنبل؛ ومما سنّه له منها مع عقله، أن يغذيه بالمعارف الحقة، وأن يوسع من دائرة تجاربه إلى أقصى حد يمكنه الوصول إليه؛

ومما فرضه عليه منها مع جسده أن يكرمه بالنظافة، وأن لايرهقه فى عمل، سواء أكان دنيويًا أم دينيًا، وأن يلتمس له الصحة من كل مظانها؛ ومما أوجبه عليه مع الكون أن يتدبر آياته، ويكشف عن مساتيره؛ ومع بنى ملته أن يعتبرهم إخواناً، وأن ينصفهم من نفسه، وأن يعمل لخيرهم جهده؛ ومع بنى نوعه أن يحسن إليهم ويبرهم، وأن يعدل فيهم إلخ إلخ، حتى لم يستثن من كل ما هداه إليه من أخلاق، ما يجب عليه نحو الحيوانات العجم، والجامدات الصم.

فهذه المجموعة من الأخلاق يقوِّم بعضها، وهى فى ترابطها وتساندها يتألف منها سياج أدبى، يسمح للأمة التى تأخذ به أن تدخل فى جميع ضروب التطورات الاجتماعية والأدبية آمنة من الانحلال والتلاشى. وقد دل تاريخ المسلمين على صدق هذا النظر، فإن المسلمين فى جميع أدوار قوتهم لم يعترهم ما اعترى الأمم من التراخى فى كيانهم، وإنك لتراهم وهم فى أشد حالات ضعفهم يستعصون على جميع عوامل الانحلال. وهذا الأثر قد أدهش علماء الاجتماع، فلا فتن المدنية، ولا غلبة الاستعمار الأجنبى، ولا انتشار الجهالة فى بعض بيئاتهم، بصالحة لأن تحل رابطتهم الاجتماعية، أو تعدو على حالاتهم النفسية. بل تجد أضعف جماعة فيهم عظيمة الثقة بالمستقبل، قوية الإيمان بصلاحيتها لأن تسترد فى يوم من الأيام مجدها الضائع على أكمل وجه. فهذه القوى المعنوية الضخمة فى أشد الحالات الموجبة لليأس، هى أثر ذلك السياج الخلقى المتين، الذى برهن فى كل عهد من عهود الانقلابات التاريخية، على أنه من قوة الاحتمال بحيث تصطدم به أقوى عوامل التحليل فترتد عنه خاسرة.

لا جرم أن هذا أقوى بناء اجتماعى عرفه البشر منذ أن خلق الله العالم إلى اليوم.

الروح الإسلامية ومدى تأثيرها
فى النفس البشرية

- ٩ -
المقومات الجثمانية

لقد عنى الإسلام بالمقومات الجثمانية عنايته بالمقومات الروحية والعقلية، وهذه ميزة لم يشاركه فيها دين من الأديان المنتشرة بين جماعات البشر اليوم. فالذى يعرف عنها أنها تهدر المقومات الجثمانية فى جانب المقومات الروحية، ولكل منها فى ذلك أسلوب خاص اشتهرت به فى هذا العهد شهرة عالمية.

فالبراهمة والبوذيون فى الهند وغيرها، يرهقون أنفسهم عسراً، ويسومونها التكاليف والرياضات المضنية، كسراً لطغيان الجسم، ومناهدة لسلطانه؛ تذرعاً للوصول إلى السمو الروحى، والصفاء الوجدانى. ويروى عن خاصتهم فى هذا المجال مالم يرو عن سواهم من أصحاب المجاهدات النفسية، من ضروب التعذيب التى يعاملون بها أجسادهم، طموحاً إلى هذه المنزلة. فمنهم من يقللون من طعامهم وشرابهم إلى حد أن يصيروا كالهياكل العظمية هزالاً ونحولاً، ومنهم من يضيفون إلى هذا إثقال أجسادهم بالسلاسل الحديدية، بل منهم من يجلسون وينامون على أسنة مشرعة من المسامير ينفذونها متقاربة من أسفل أسرتهم لتباشر أطرافها المحددة أبدانهم.

---

(١) مجلة الأزهر- المجلد الثامن سنة ١٣٥٦ هـ، ص ٢٤١

وأما الإسرائيليون فإنهم وإن لم يقولوا بلعنة المادة، فإن فى ديانتهم إرهاقات جسدية لا يتحملها إلا الأتقياء منهم، وكانت سبباً فى خروج الكثرة الغفيرة من إسرائيلى أوروبا عن تقاليدهم فى مسألة السبت والشئون الغذائية، واتباعهم ما يجرى عليه الناس هنالك، فهم كما يقول المسيو (جوليان ويل) حاخام باريس فى كتابه عن الديانة الإسرائيلية قد أصبحوا يهود قومية لا يهود ملية.

ونظراً لفداحة التكاليف الجسدية فى الديانة اليهودية، وعجز أكثر الناس عن القيام بأدائها، قد كلف كل ربانى يتقدم إليه رجل طالباً الدخول فى هذه الملة، أن يحاول رده عن قصده حتى لا يرتد بعد تهوده. قال المسيو جوليان ويل المذكور آنفاً: «يجب على كل ربانى أن يرد كل طالب الدخول فى عهد إبراهيم ثلاث مرات، لافتاً نظره إلى الصعوبات التى سيصادفها، والتكاليف الشاقة التى سيتحملها، والاخطار التى سيتعرض لها. فإذا أصر على طلبه، وتحقق الربانى بأن الدواعى التى تحدوه للتهود طاهرة ونزيهة، فيمكنه أن يقبله فى حظيرة البيعَة» ثم قال الحاخام المذكور:

«هذا التحفظ فى أمر طالبى التهود دعت إليه طبيعة اليهودية ونظامها الخاص الذى لا يقصد به إلا الإسرائيلى بأدق معانى هذه الكلمة؛ وأوجبته كذلك ما فى اليهودية من التكاليف الكثيرة التى يستدعى العمل بها نكران الذات والاخشيشان والثبات والشجاعة، وأحياناً البطولة أيضاً»

أما المسيحية فإنها وإن كانت لا تبلغ شأو اليهودية فى التكاليف الشاقة، فهى بنص كتابها وشروح علمائها، ديانة زهد وتقشف، وتخلص من علاقات الدنيا، وإعداد بالروح دون الجسد.

أما الإسلام فقد امتاز عن جميع الأديان المعروفة بالعدل بين مطالب الروح ومطلب الجسد، فهو لا يتقاضى الآخذ به أن يحرم نفسه من متعة مادية، ولاملذة جسدية، ما دام يتناولها من طريقها المشروع، وفى حدها المعتدل، بل لا يمنعه أن يبلغ أبعد شأو فى الغنى مادام يؤدى حق الله منه، وحق الله هو ما

نص عليه فى كتابه من البذل فى سبيله، والإنفاق على عياله، «الفقراء عيال الله».

لم يقم الإسلام على هذا الصراط السوى بين الروح والجسد ذهاباً منه أنهما سواء فى الدرجة، أو أن الحياة الدنيا تساوى الحياة الآخرة. لا، ولكن لأن الحكمة الإلهية اقتضت أن يكون الدين العام الخالد مبنياً على قواعد العلم، ونواميس الطبيعة. وقد قرر العلم أن العقل السليم لا يكون إلا فى الجسم السليم، وأن السمو الروحانى لا يتأتى من حرمان الجسد من حاجاته، ولكن من توفية تلك الحاجات فى دائرة الاعتدال، وأن ذلك السمو ليس فى أن يعيش الإنسان حياة سلبية لا أثر لها فى الخارج، ولكن فى أن يعيش حياة إيجابية تستفيد من الوجود علماً وحكمة، وتفيضهما على من يجاورها من المزاملين لها فى الحياة.

نعم إن السمو الروحانى لا ينال بحرمان الجسم من حاجاته، فإن قصارى من يسلك هذه الطريقة أن ينفق السنين الطوال فى ترويض نفسه على الإقلال، ذائداً إياها عن التطلع للمتع المادية، باذلاً فى هذا السبيل جميع ما أوتى من مذخور معنوى، ثم يخرج من هذا الكفاح المضنى غير حاصل إلا على ميزة واحدة، وهى ضبط النفس عما سوى الضرورى من مقومات الحياة، ولكنه لايكون حاصلاً على السمو الروحى الذى يجد وراءه أهل الطموح العالى، وهو أن يكونوا مالكين لقياد أنفسهم يصرفونها فيما يجب من الأعمال، ومؤثرين فيما حولهم يوجهونهم إلى حيث تستدعيه كرامة الحياة، وشرف الوجود.

فإذا عمدنا هنا إلى التشبيه، فإن الأولين يشبهون من يريدون كبح جماح مطاياهم بإضعافها بالمغبة، تفادياً من تحمل مشاق الترويض على أصوله المقررة، فلا يحصلون بعد طول العناء منها إلا على أنضاء رازحة. وأما الأخيرون فيشبهون من يريدون أن يجعلوا من دوابهم سوابق تطير بهم إلى الغايات القصية، دون أن تعرضهم لأخطار الطرق وعقباتها، فيلجأون إلى أصول الرياضة الصحيحة يسومونها إياها فى اعتدال وأناة ومهارة، فيبلغون ما يريدون منها صلابة عود ودربة، حتى إذا جد الجد كانت طوع بنانهم فى

الكر والفر، قوية على كل مكاره الكفاح، تسخو بنفسها على المعاطب كأنها أدوات مسخرة، لا كائنات شاعرة.

كذلك الرجال إذا لجأوا فى التكمل إلى الأسلوب السلبى فى حاجاتهم، والتدبير الإذلالى لأجسادهم، خرجوا من مراسهم هذا كالخلال هزالاً، وكالجوامد صبراً على الخسف، فلم يصبحوا أهلا لأن يحموا حماهم، ولا أن يردُّوا ضيماً يراد بهم. فإذا لم تضطرهم النوازل إلى الشك فى دينهم، اضطر أخلافهم إلى ترك العمل به، فأصبح فيهم شبحًا ذهنيًا، لا ديناً عمليًا. ومن يتأمل فى أحوال الذين تدعوهم أديانهم لمثل هذا الضرب من الرياضة، يجد ما نقوله جليًا واضحًا.

أما الإسلام فقصد من الدين أن يكون دستوراً عمليًا، لاخيالاً وهميًا، وأن تكون ثمرته إنشاء أمة تكون مثلاً أعلى للأمم فى حماية بيضتها، والذياد عن كرامته، والجرى على أكرم أصول العدالة، وأشرف مباديء الاجتماع، لتصل إلى أبعد شأو من المدنية الفاضلة، والحياة الكاملة، ويكون آحادها أعلام هدى فى كرم الطباع، وسمو الأخلاق، وشرف المقاصد، وبعد الهمم، ينصرفون فى تحقيق مراد الله من تكميل الخليقة، انصراف النوامس المسخرة، لا تصدهم عنه خاطرة من شهوة، ولا بادرة من هوي، ولا سانحة من وهن.

فلا يتهمنا متهم بأننا نغترف من الخيال ما نلهى به القارئين، وننتزع من الوهم صوراً ليس لها ما يدل عليها من الحوادث. فإن الأمة الإسلامية فى صدر الإسلام كانت مثالاً حيًا لما نقول. ألم تتألف على أكرم المباديء، وأشرف الأصول، طلبًا للحق فى ذاته، لا لدنيا تصيبها، ولا لسيادة تحصلها، وكان آحادها من السمو الخلقي، والأدب النفسى والبطولة الفذة، بحيث ضربت بهم الأمثال، وتناقلت سيرهم الأجيال، فلما اختلطوا بالأمم داخلها من إكبارهم

وإعظام شأنهم، ما حملها على الدخول فى ملتهم طوعا لا كرها؟ فهل عهدت فى تاريخ البشر أن شرذمة من الناس، تألفت فى أبعد بلاد الله عن الاجتماع وسياسة الشعوب، تستهوي فضائلها مائة مليون من البشر فى مدى قرن واحد دون دعوة غير السمت الصالح، والمظهر الفاتن؟

أليس ما نقوله هو مانطقت به الحوادث، وقرره التاريخ، وشهد به حتى الأجانب؟ فالإسلام قد رمى بأصوله ومبادئه إلى إحداث مثل هذا الحدث الضخم فى العالم، وما كان ليتأتى ذلك جريًا على مبادىء رياضة سلبية، تجرد النفس من أشرف نزعاتها الإيجابية، وتميت فيها أكرم غرائزها الفطرية، وتضعف منها أقوى عواملها المعنوية. فما خلق الله فى الإنسان هذه القوى الغريزية، والميول الجسدية، والشهوات البدنية، عبثاً، أو لتستوعب رياضتها وقمعها حياة الإنسان كلها، ثم لا تكون ثمرة هذا الجهاد كله فى أمة أو أمم برمّتها إلا أن تصبح كالمومياوات المصبرة؛ أو كالأشباح التى لا حياة فيها، ولكنه خلق الإنسان على هذه الصورة من تباين القوى، وتنوع الغرائز، وتخالف الميول، ليصل الإنسان بامتلاك ناصيتها، وتصريفها فيما خلقت له، إلى مكانة من السمو وعدالة التصرف، بحيث يصلح أن يكون خليفة الله فى أرضه.

الذى يراه الناس اليوم أن الجماعات البشرية قسمان: قسم على المبادىء السلبية، وهى لا تفترق عن قطعان الماشية فى أيدى الأمم المتغلبة، وقسم على الأصول الإباحية، وهى قد حصلت على حظ من القوة والبطش، بيد أنها قد انحطت إلى الإباحة البهيمية، التى لاتتناسب وكرامة الإنسانية. وأنا لا أقول ذلك تعصبًا لمذهبى، ولكن الذى يقوله علماؤها وفلاسفتها حتى الماديون منهم.

ولو كانت هذه الحالة الإباحية سليمة من جراثيم العطب، لأمكن أشياعها أن يدّعوا أنها هى المثل الأعلى للحياة الأرضية، ولكنها مبتلاة بجراثيم الأمراض الاجتماعية، ومهددة بقارعة حرب عمومية، لو حدثت لتصوحت زهرة المدنية، وارتكست الإنسانية لأسوأ عهودها البربرية. وقد ارتكست أمم متمدنة مرات

عديدة إلى البربرية الباحتة، فمنها من أتيح لها الخلاص منها، ومنها من بادت أو فنيت فى جثمان أمة أخرى.

فالحالة الوسطى بين الروحانية المتطرفة والمادية الباحتة، أمر يستدعيه الاتزان الاجتماعى، والاستقرار العالمى، ولا يوجد فيما بين أيدينا من التعاليم ما هو حاصل على هذه الميزة فى تركيب هو غاية فى الحكمة غير التعليم الإسلامى.

نعم: قرر الإسلام أن الآخرة خير من الأولى، وأن الكمال الروحانى هو الغاية التى يجب أن يتجه إليها كل مسلم، ولكنه أمره أن لايغفل حظه من الكمال المادى، حتى تكاد لاتجد فى القرآن تحضيضاً على منزلة روحية، إلا مقرونة بتحضيض على نيل مكانة مادية، قال الله تعالى:

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾(١)

وقال: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٢).

وقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٣).

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾(٤).

وقد دلنا على مايجب أن يكون عليه دعاء المؤمنين من الجمع بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة، فقال:

---

(١) القصص: ٧٧
(٢) النحل: ٣٠
(٣) النحل: ٩٧
(٤) النحل: ٤١

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾(١).

وفى الكتاب الكريم آيات كثيرة تحض المؤمنين على وجوب العناية بالجسم من ناحية النظافة وحفظ الصحة وعدم إرهاقه بالمشاق، ولا حرمانه من متع الحياة واللذات المشروعة، فقال تعالى:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾(٢).

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾(٣).

مما يجب لفت النظر إليه فى هذه الآية الآخيرة أنه سمى حرمان النفس مما أحله الله اعتداء، أى خروجاً عن صراط العدل بين الطبيعتين، وهذه غاية فى عناية الإسلام بالناحية المادية من الحياة الإنسانية.

أما السنة فهى حافلة فى هذه الناحية بالحكم الباهرة. من ذلك ماروى عن النبى ﷺ أنه قال لعبد الله بن عمرو بن العاص وقد بلغه أنه يفرط فى التنسك، يصوم الدهر ويقوم الليل: «ياعبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل»؟ قال عمرو: فقلت بلى يارسول الله. قال: فلا تفعل، صم وأفطر وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقًا، وأن لزورك(٤) عليك حقًا، وإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام، فإن لك

(١) البقرة: ٢٠٠ ـ ٢٠٢
(٢) الأعراف: ٣٢
(٣) المائدة: ٨٧، ٨٨
(٤) لزورك: أى لزائريك، جمع زائر

بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر كله. قال عمرو: فشددت، فشدد على. قلت يارسول الله فإنى أجد قوة. قال فصم صيام نبى الله داود ولا تزد. قلت وما كان صيام نبى الله داود عليه السلام؟ قال رسول الله: نصف الدهر». فكان عبد الله بن عمرو بعد أن كبر يقول: ليتنى قبلت رخصة النبى ﷺ.

أرأيت أحكم من هذا؟ رسول كان يعبد الله حتى تتورم قدماه، ويربط الحجر على بطنه من ألم الجوع، ينهى آخذاً بدينه أن يبالغ فى العبادة[1]؟ أتراه كان يصده عن خير؟ لا ولكنها الحكمة الإسلامية ترشد أهلها إلى أن الكمال الإنسانى المنشود، لا ينال بإرهاق الأجساد، ولكن بالعلم، والعمل، وتحرى الحق، وتجنب الباطل، وتطهير القلب، وتهذيب النفس، والوصول إلى درجة الرجولة الكاملة.

(١) لا يعترضن معترض بقوله: كيف ينهى النبى ﷺ الناس عما كان يفعله هو من المبالغة فى العبادة، فإن للنبوة باتصالها بالعلم الروحانى شأناً غير شأن سائر الناس.

الروح الإسلامية ومدى تأثيرها في النفس البشرية

- ١٠ -

المقومات الاجتماعية

الإسلام آخر الأديان السماوية نزولاً، وكتابه خاتمة الوحى الإلهى للإنسانية، وقد نص فيه على ذلك فى غير موطن منه، وأثبت الزمان ذلك بعدم قيام دين بعده إلى يومنا هذا. اللهم إلا مذاهب لبعض الأفراد ادعى أصحابهم أنهم رسل الله، وبعضهم غلا فاعتبروا زعيمهم الخالق نفسه متجسداً. ولكن هذه المزاعم لم تصدقها الحوادث، فلم تقم لتلك الأديان المزعومة قائمة، ولو كانت من الله لبزّت جميع الأديان فى الأتباع، ولكانت لها دولة وصولة فى العالم، ولم تكن على ماهى الآن، وقد مضى على بعضها أكثر من قرن ولا تزال مجهولة لا يكاد يعرفها إلا عدد قليل فى كل نحلة.

بهذا الاعتبار جاء الإسلام حائزاً لمميزات الخواتيم، وهى النهايات التى ليس وراءها مذهب، سواء أكان ذلك فى المعتقدات والعبادات والمعاملات، أم فى الأخلاق والآداب، وروابط الاجتماع. وبما أننا اليوم بصدد المقومات الاجتماعية فإننا نبسط القول فيها تحت ضوء مقرراتها الرسمية، فنقول:

كانت الروابط الاجتماعية قبل الإسلام لا تعدو دائرة القوميات، فكان لكل قوم دعتهم الضرورة للحياة حياة مشتركة نعرة جنسية قائمة على المصلحة المادية

(١) مجلة الأزهر المجلد الثامن سنة ١٣٥٦ هـ، ص ٣٨٥

دون سواها. فأفراد هؤلاء القوم كانوا يقبلون الاشتراك فى الحياة دفعاً لعاديات جماعات أخرى، وتعاوناً على مبدأ تقسيم الأعمال، والاستفادة من الميول المختلفة فى المحاولات المعيشية.

على هذا الأساس قامت جميع الربط الاجتماعية السابقة، لم تشذ واحدة منها فتتطلب غرضاً أسمى من المصلحة المادية، وهو إلى اليوم مدار الدعوة الرئيسية إلى الالتفاف حول راية واحدة أو التوجه لغاية معينة. ولكن هل هذه النعرة القومية هى المثل الأعلى للدعوة إلى الاجتماع، وإلى التضامن فى الحياة، والتساند فى تذليل ما يعترضها من عقبات؟ اللهم لا، وإليك البيان:

الأمم تتطلب اليوم إبطال الحروب لما ثبت لها أنها تصيب الغالب والمغلوب على السواء، بسبب دخول الحياة العالمية فى ترابط اقتصادى تام، فما يفسد هذا الترابط أو يخله تقع تبعته على جميع الأمم بلا استثناء. فقد انتصرت الأمم الأوربية على الألمان فى الميدان، ولكنها تحملت وإياها تبعات تلك الحرب الشعواء، فما من أمة منها إلا وقد اضطرب جثمانها، واختل توازنها، ورجعت فى بعض شئونها القهقرى عشرات من السنين. وإذا تلتها حرب أخرى فستكون نتائجها أعدى على كيانها من الحرب السابقة، وأشد إخلالاً لتوازنها. ولذلك تجد الأمم تتجنب وقوع الحرب جهد طاقتها.

ولكن تجنب الحرب لا يكون بالتمنى، فهو يقتضى تحديد التسلح، وتكافل الأمم على حل مشاكلها بالتحاكم إلى العدل لا إلى السيف، واتفاقها على كل من يخالف ذلك بالتألب عليه وإلزامه حده بالقوة.

كل هذا لا يكفى فإن الجوع كما قيل كافر، والأمم التى تنمو تحتاج لمادة جديدة لتقيت بها الزيادة فيها، وإلا طاشت الأحلام تحت تأثير الحاجات الملحة، وأحدثت ما لا تحمد عقباه من الاضطراب، والضمير البشرى أصبح لا يطيق أن يضغط على أمة ويضيق على خناقها لتموت تحت تأثير حاجة طبيعية لبعضهم منها أوفى نصيب، ومقدار يزيد عن حاجتها زيادة عظيمة.

من هنا نشأت فكرة توزيع المواد الأولية العالمية توزيعًا عادلاً بين الأمم حتى يعدم تطلعها للاستعمار، والعدوان على غيرها من الأمم. ولكن وصولها إلى هذه النتيجة من العسر بمكان، فإن شراهة المحرومين، وشح المستأثرين، تمنع من الوصول إلى حل وسط.

ولكن الوصول إلى هذا الحل أمر لا محيص منه، فإن الترابط بين الأمم تشتد عراه يومًا بعد يوم، وتداخل المصالح العالمية يزداد شيوعاً على نسبة تقدم المدنية، والمدنية تيار جارف يطغى فى طريقه على كل عقبة.

ولسنا ننسى أنه إلى جانب هذه العوامل الداعية إلى التفاهم بين الشعوب، توجد عوامل أدبية أشد منها تأثيراً، منها ذيوع مبادىء الفلسفة بين الناس، وهى تصور الحروب البشرية تصويراً لاقبل للضمير البشرى بقبوله، وتلطف الشعور الإنسانى إلى حد النفور من كل عمل وحشى، وسقوط الأوهام التى كانت تبنى عليها مجادة الأمم من الانتصار فى الحروب، واستئصال شأفة الأعداء، أو تمزيقهم كل ممزق، وضعف التعصب للأديان إلى درجة أنه أصبح يعتبر من مفسدات الشخصية البشرية. وفوق هذه العوامل كلها عامل ذيوع العلم بين الأفراد وقضائه على كل عقيدة باطلة بأدلة لا تحتمل النقض، وتجليته للناس العقائد الفطرية من وجود الخالق والروح والخلود والعالم الروحانى بحجج حسية تثلج عليها الصدور، ويشترك فى الخضوع لها الناس كافة.

من هنا يدرك كل من يتأمل فى أحوال الإنسانية أنه لابد، تحت تأثير جملة هذه العوامل المتضافرة، من توحد الإنسانية فى المعتقدات الأولية، وفى الآداب النفسية، وفى ربط الاجتماع أيضاً.

نعم إن بلوغ هذا الشأو يحتاج لوقت طويل، ولكن الإنسانية متجهة إليه، ولا يتخيل شيء يصدها عنه، إذا عرف أن ناموس الارتقاء طبيعى، وأنه لا محيص من تأثيره. فالروابط الاجتماعية ستنقلب من المادية الباحتة، التى تفضى إلى التزاحم والتنازع على العيش، إلى مادية وروحية فى آن واحد،

تفرض على الكافة حقوقاً تتناسب وترابط مصالحهم، وتداخل مرافقهم، ووصولهم إلى درجة من السمو الأدبى بحيث يستفظعون أن يعيش بعضهم بامتصاص دماء بعض.

فالإسلام الذى جاء بالمثل العليا فى جميع الشئون الإنسانية، جاء بالمثل الأعلى فى هذه الناحية أيضاً، فلم يدع إلى اجتماع أساسه القومية ولا الجنسية، ولم يعبأ بالأواصر اللغوية ولا التاريخية، ولكنه تخطى تلك الاعتبارات الخاصة كلها، ودعا إلى المثل العليا للاجتماع الذى ستنتهى إليها الإنسانية، وهى الوحدة النوعية، والأصول الأدبية، والمبادىء الخلقية، فجاء مجتمعه ذا صبغة عالمية عامة، لا قومية خاصة. وأول أساس وضعه فى هذا الصرح الاجتماعى العالى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[1].

فأنت ترى أنه يدعو الناس كافة ولا يدعو قبيلة واحدة، ولا أمة بعينها، وقد جاءت جميع آياته داعية إلى هذا المبدأ السامى مبدأ الوحدة الإنسانية، بصرف النظر عن جميع الفوارق من جنس ولغة ولون. وهو لأجل أن يوطد أركان هذه الوحدة ويجعلها حقيقة واقعة، لا خيالاً شعريًا، دعا إلى الدين الجدير بأن يكون ديناً عامًا للإنسانية، وهو دين الفطرة الذى يتأدى إليه الإنسان محفوزًا بمقتضيات فطرته لا بتعليم معلم، ولا بتوريث مورث، فقال: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2].

والفطرة تدعو إلى الاعتقاد بخالق الكون، وبالروح وبقائها فى عالم وراء هذا العالم، وبترتب أحوالها هنالك على سيرتها فى هذا العالم، وعلى حب الحق، وكراهة الباطل، وإيثار العدل، ومكارم الأخلاق، وإقامة دولة الفضيلة فى الأرض.

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) الروم: ٣٠.

يقول قائل: كل دين يدعو إلى هذا فأى مزية للإسلام عليها؟ نقول: نعم، والإسلام يقرر أنه ليس بدين جديد، ولكنه الدين الأول الذى أوحاه الله إلى أول أنبيائه، فحرفه الناس وأخرجوه عن أصوله، وتفرقوا فيه، وذهب كل فريق بما تخيله منه، ينابذ به سواه ويستحل دمه. فجاء الإسلام لتنبيه الناس إلى هذا الخطأ البين، والضلال البعيد. قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ (أى لا محاجة ولا خصومة) ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾(١).

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ﴾(٢).

فالإسلام يدعو لتوحيد دين الإنسانية، وهو الدين الذى فطر عليه الناس جميعاً، وهو إنما تعددت صوره بفعل الرؤساء الذين اقتضت أهواؤهم أن يستغلوا الخلاف بين الناس، مواتاة لمطامعهم، ومسايرةً لمزاعمهم.

فالدين فى نظر الإسلام كل لايقبل التجزؤ، ويشمل ما أوحاه الله إلى الناس كافة، واعتبار كل من أرسلهم إليهم فى جميع العصور والأجيال، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ

(١) الشورى: ١٣ ـ ١٥
(٢) آل عمران: ١٩

﴿وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾(١).

والإسلام لأجل أن يسد جميع المسارب على التضليلات التى يتذرع بها رؤساء الأديان لخدع الشعوب، وتفريقهم وحمل بعضهم على معاداة بعض، أقام العقل حكمًا يرجع إليه فى التفرقة بين الحق والباطل، وجعل الدليل وسيلةً من وسائل الوصول إلى لباب المسائل المتنازع عليها. وزاد الإسلام على هذا، القضاء على الاعتداد بالموروثات من العقائد والتقاليد، وجعل كل إنسان مسئولاً عن نفسه، وخلى ما بينه وبين ربه بإسقاط الوسطاء الذين انتحلوا لأنفسهم هذا الحق، فى غفلة العقل، وفى دور طفولة الإنسانية.

فالأديان كما يقول المعترض تدعو كلها إلى عقائد واحدة، ولكنها ملتاثة بشوائب الآراء البشرية، مما لا مناص من التنابذ عليه، ولكن الإسلام يدعو إلى تلك العقائد خالصة من شوائب الآراء، فلا تجد الشعوب المختلفة مانعا يمنعها من الأخذ بها باعتبار أنها دين الإنسانية جمعاء لا دين طائفة من الطوائف، ولا أمة من الأمم. فدين الإنسانية لا يجوز أن يكون حاملاً طابعاً من قومية، ولا أثراً من عقلية، ولا شائبةً من حالة نفسية. بل أصولاً أولية، ومبادىء كلية، وآداباً عالمية.

هذه الغاية سينتهى إليها العقل البشرى حتماً، وإذ ذاك لاتجد الإنسانية فى طريق وحدتها حائلاً يمنعها منها، وعند ذاك تكون الأحوال الاقتصادية العالمية قد استقرت على قرار مكين، وتكون العلوم قد بلغت شأوًا تصلح معه أن تطهر النفوس من دنس الميول الساقطة، وتخلص المدنية من آفاتها الموبقة، فتقوم على سياسة رشيدة فى حكوماتها، وأخوة صادقة بين جميع وحداتها، وإذ ذاك يتحقق ما وعد الله به فى قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾(٢).

---

(١) النساء: ١٥٠، ١٥١.

(٢) فصلت: ٥٣.

فالإسلام بما شرعه من جعل أصول الاجتماع قائمة على الأصول الأدبية، والمبادىء الخلقية والعقائد الفطرية، قد وضع أساس مجتمع عالمى عام ستقوم عليه البشرية حين تبلغ رشدها، وتعرف حدها. وقد جرى فى ذلك على سنته من الدعوة إلى النهايات من كل الأمور، والإهابة إلى الغايات فى جميع الشئون.

الروح الإسلامية ومدى تأثيرها في النفس البشرية[1]

- ١١ -

مقومات التكافل العالمى

كانت الحالة الاجتماعية فى العالم قبل الإسلام، أن كل أمة تعيش على حساب نفسها، منقطعة الصلات بكل أمم الأرض، إلا ما تجمعها بها محالفة دفاعية أو دفاعية هجومية لمصلحة الطرفين المادية، ولم ينشأ الشعور بوجوب وجود تكافل عام بين جميع الأمم إلا فى القرن التاسع عشر، حيث كتبت فيه بحوث قيمة، ونشرت له دعوة مؤثرة.

كانت الأمم قبل هذا التاريخ أشبه بالمعسكرات المعبأة، لاتأمن الغارات المفاجئة ليلاً ولا نهاراً، وكان كل فرد منها مهدر الدم إن حدثته نفسه بتجاوز حدود بلده. فلما ازداد العمران، ونشأت الحاجة إلى تبادل المحصولات الأرضية، والمنتجات الصناعية، نشأ بجانبها شعور بضرورة احتمال الأجانب فى حدود هذا التبادل. ومع هذا فكان المتغربون للمبادلات لايستطيعون تجاوز مناطق معينة من التخوم المتجاورة أو الشواطىء البحرية، فإذا آبوا فلا يأمنون على أنفسهم من الغارات البرية والبحرية، فكانوا يتخذون لذلك أهبتهم الحربية.

كان العالم كله إلى ذلك الحين متأثراً بالعوامل المادية، ولم تكن قد ولدت

(١)مجلة الأزهر - المجلد التاسع سنة ١٣٥٧، ص ٧٣

بعدُ عاطفة الجامعة الإنسانية، إلا فى رءوس بعض أفذاذ الفلاسفة على نقص فى مدلولها. ألم يقل أفلاطون نفسه: إنى أحمد الله على ثلاث: على أن خلقنى إنساناً ولم يخلقنى حيوانًا، وعلى أن جعلنى يونانياً ولم يجعلنى من جنس آخر، وعلى أن أوجدنى فى عصر سقراط ولم يوجدنى فى عصر غيره؟ ألا يدل هذا على أن توهم الأجناس السمو على غيرها كان قويًا حتى فى عقول الفلاسفة المبرزين؟ ودعوى السمو تقتضى التميز فى الحقوق، وليس هذا من العدل المطلق فى شىء. ومثل هذه الأوهام لا تدع محلاً فى الأذهان لفكرة الجامعة الإنسانية.

ولكن الإسلام قد أتى بما يزيل هذا الوهم، فذكَّر الناس جميعاً بأصلهم الأول وهو آدم وحواء، ومن كان أبوهم واحداً وأمهم واحدة فلا محل لأن يدعى بعضهم السمو على بعض من ناحية الجنسية. وترك الطريق مفتوحًا لمبدأ سام وهو أن التميز الصحيح يكون بما يكتسبه الإنسان من صفات روحية، ومزايا عقلية، وهذا التميز لا يحتاج فى تقرره لغير تحققه فى شخص معين، أو أشخاص معينين، فيصبح حقًا لا مرية فيه، ويسارع الناس إلى الاعتراف به للاستمداد منه، والأخذ عنه، وهذا كله مؤدى قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(١).

ولدت مع هذا المبدأ الذى أعلنه الإسلام فكرة الجامعة الإنسانية لأول مرة فى تاريخ العالم البشرى، ولم يدعها محصورة فى دائرة نظرية بحتة، كأكثر النظريات الفلسفية التى نقرؤها فى أسفارها الضخمة ولا نجد لها أثراً فى الخارج، ولكنه طبقها على العمل ككل مبدأ جديد أتى به لترقية المجموعة الآدمية.

فأول مظهر يراه الباحث من آثار تطبيق الإسلام لهذا المبدأ، محوه للفروق الجنسية واللغوية واللونية، ومحقه للنعرات القومية المتوسطة فى جميع المسافة

(١) الحجرات : ١٣

التى بين آدم ومحمد وما بعده إلى يوم القيامة، فأصبح لم يعد يستطيع قائل أن يقول فى بلاد العرب، وهى بؤرة الفروق القومية: هذا عدنانى وهذا قحطانى، أو هذا عربى وهذا تركمانى، ولا هذا أبيض وهذا أسود، فصار جميع البشر ينْتزون إلى أب وأم، إخواناً لا يتميز بعضهم على بعض إلا بالمميزات الأدبية والروحية. وكان أصحاب رسول الله ﷺ يعتبرون الاعتزاز بالقبائل إثماً يجب الاستغفار منه. جاء فى أخبار عمرو بن العاص أنه حدث بينه يومًا وبين المغيرة بن شعبة حوار، فسبه المغيرة، فغضب عمرو وقال: يال هصيص يسبنى المغيرة! فقال له ابنه عبد الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، أدعوة القبائل يا أبت وقد نهى رسول الله ﷺ عنها؟! فندم عمرو على ما بدر منه، وكفّر عنه بأن أعتق ثلاثين عبداً.

وناقش أبوذر فى حضرة النبى يوماً رجلاً أسود فاحتد عليه وصاح به قائلاً فى عرض الكلام: يابن السوداء! فغضب رسول الله ﷺ وقال: طف الصاع طف الصاع! ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بعمل صالح. فندم أبو ذر على مافرط منه وكفّر عن فعلته بأن وضع خده على الأرض وقال للرجل الأسود: قم فطأ على خدى.

هذه حوادث قد يقرؤها الناس كما يقرءون الفكاهات، وهى فى الحقيقة أمور جلل، يصغر بجانبها كل إكبار، لأنها تريك ميلاد أضخم مبدأ عالمى فى العالم الإنسانى على يد خاتم المرسلين ﷺ.

وقد تمشى أسلوب تطبيق هذا المبدأ على كل ما وضعه الإسلام من أصول روحية وخلقية، وما قرره من مبادىء أدبية وقانونية، وما أسسه من معاملات سياسية واجتماعية، وذهب فى تطبيقه حتى فى مجال الحرب، فسمح بها إذا حتمتها الضرورات، ولكنه أمر بالقصد فيها، وحاطها بكل ضروب التخفيف، مراعاة لمبدأ الجامعة الإنسانية، فقال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[1].

(١) البقرة: ١٩٠

وقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ (أى ولا يحملنكم بغضكم لقوم) عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1].

وأمر النبى مع هذا أن لا يجهز على جرحى الأعداء، وأن لايتعقب مهزوموهم، وأن لايقتل خدم المحاربين، وأن يحسن إلى أسراهم، وأن لايتعدى على غير المحاربين من نسائهم وأولادهم وشيوخهم وقسوسهم.

أين هذا كله مما يجتهد فيه المتمدنون اليوم من إعداد الآلات الجهنمية لهدم المدن الآمنة ونسف دورها على من فيها من النساء والولدان والهرمى والمرضى، وإحراق مزارعهم وتحطيم بناياتهم، وهذا كله مما نهى عنه الإسلام عملاً بالمبدأ الذى قرره من الاعتداد بالجامعة الإنسانية العامة؟

فهذا السمو الذى تحلى به الإسلام، يزداد ظهوراً إذا قورن بما يجرى بين أرقى المتمدنين اليوم من المعاملات التى تنافى كل مبدأ عال من هذا الطراز. فإذا أراد الإنسان أن يستدل على نبوة نبى، فلا إخاله يستطيع أن يصادف أظهر ولا أجلى من هذه الأدلة الدامغة. فإذا كان العلم الطبيعى وما حمله إلى الإنسان من كشف المساتير، وهتك الحجب عن وجوه الحقائق، وماتحلت به الفلسفة العصرية من الكلمات الضخمة، والعبارات المفوفة، إذا كان كل هذا لم يوصل الإنسانية إلى كلية من هذه الكليات العلوية التى قررها الإسلام، وحمل أهله على العمل بها، فى بقعة من الأرض لم يكن للعلم ولا للفلسفة ظل فيها، أفلا يكون هذا أدل دليل على ما للوحى الإلهى من السلطان على قلوب الناس وعقولهم، أكثر مما للعلم منه بما لا يقدر؟

وإذا قورنت سيرة قوم كانوا بالأمس أهل جاهلية يأكل بعضهم بعضاً، بسيرة المتمدنين اليوم وهم أهل علم وفلسفة، وعراقة بعيدة الغور فى الفكر والنظر، وتحليل الشئون الإنسانية وتركيبها، فهل تجد بدًا من الحكم بأن الأصول

---

(١) المائدة : ٨.

الإسلامية ترفع من نفوس الآخذين بها ما لا ترفعه أصول جميع العلوم والفلسفات مجتمعة؟

فالإسلام الذى أوجد فكرة الجامعة الإنسانية وأخذ يرسخها فى نفسية أهله، لم يغفل جزئية من جزئيات الأمور إلا وقرن بها ما يوجهها هذه الوجهة العالمية الكريمة، حتى فيما يبذله الإنسان من الصدقة، فقد قال النبى ﷺ: «تصدقوا على أهل الأديان كلها»، وحتى فى الهدية. وقد أثبتنا هنا فى بعض بحوثنا أن ابن عباس أمر خادمه بذبح شاة فقال له وهو يسلخها: لا تنس جارنا اليهودى. وما لبث غير قليل حتى عاوده بهذا القول، ثم مالبث أن كررها الثالثة: فقال خادمه: كم تقول ذلك؟ فقال له: إن النبى ﷺ أمرنا بمراعاة الجار حتى خشينا أنه سيورثه. فابن عباس لم يفرق بين المسلم وغيره فى حقوق المجاورة، وما ذلك إلا لأن اعتباره وصايا تعاليمه وجميع الإسلام لم يخل من الجامعة الإنسانية. وهل بعد قوله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[1].

مرمى لمستزيد؟ أليس البر لايكون إلا بين المتصافين المتحابين، ومعناه كمال الخير، ولا يستعمل إلا لزيادة العناية بمن يراد به، ولذلك استعمل فى الوصاية بالوالدين؟

وقد امتد سلطان المسلمين إلى أمم لم تكن بينهم وبينها آصرة من جنس أو لغة أو دين، بل لم يكونوا فى جاهليتهم يسمعون بوجودها، فعايشوهم على قدم المساواة، وبروهم على ماوصاهم به الكتاب، فرضوا بهم حكاماً، وبدينهم ديناً، وبلغتهم لغةً. ألم تر كيف انتشر الإسلام فى أمم برمتها دون إجبار، فلم تمض على الفرس بعد احتكاكهم بالمسلمين سنون معدودة حتى دخلوا

(١) الممتحنة : ٨.

فى الإسلام، وصارمنهم كبار أشياخه، وثقات أئمته، وقلدهم فى الدخول فيه كل الأمم التى تليهم حتى فريق من أهل الهند والصين، ولا يزالون مسلمين مخلصين إلى اليوم. ولقد دهش جميع من عنى بهذا الشأن من العلماء الغربيين وغفلوا عن السبب الطبيعى لحدوثه، وهو سمو تعاليم هذا الدين، وانطباقها على الفطرة الإنسانية والعقل، وتحليه بفكرة الجامعة الإنسانية الكريمة، مع تجرده من كل الخصوصيات القومية، والتعصبات الجنسية، والمميزات البيئية، فهو دين عالمى عام بأصوله وفروعه، لا يفرض صبغة قوم على قوم آخرين، ولكنه يطلق وصاياه وتعاليمه إطلاقا، مسميًا الحال التى تحدث من الأخذ بها بصبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة؟

ومن أعظم مظاهر تأثر المسلمين بفكرة الجامعة الإنسانية، نشرهم علومهم ومعارفهم فى كل بلد حلوا بها، وعملهم المتواصل على تحسين حالة الشعوب التى تقع تحت سلطانهم، وعدم ضنهم بتعدية علومهم للأجانب عنهم. على هذا أجمع المؤرخون من أبناء الفرنجة، وذكروا ما شيده المسلمون من الجامعات فى بلاد غيرهم، وما أقاموه من المراصد، وما سهلوه لأهل الأديان عامةً من الالتحاق بها. فكان كثير من أهل أوروبا يقدمون فى طلب العلم إلى بلادهم. فيرحب المسلمون بهم، ويوسعون لهم صدورهم، ويخلصون لهم في تلقينهم أسرار معارفهم. ولشعور الأوروبيين بكرم نفوس المسلمين، ورحابة ذرعهم، كان ملوك أوروبا وأمراؤها إذا أرادوا الاستشفاء قصدوا بلاد المسلمين لشهرة أطبائها فى صناعة الطب، وتبحرهم فى فن العلاج. ومن يأتمنك على حياته، وليس بينك وبينه آصرة من دين ولا قرابة ولا وطنية، فقد اعتقد فيك الإخلاص المطلق للإنسانية.

ومما يوجب الدهش أن فكرة الجامعة الإنسانية ظهرت بكل سلطانها فى المسلمين، حتى فى عهد حماستهم الدينية. فإن هذه الحماسة لم توجد فيهم كراهة المتدينين بغير دينهم، كما حدث ذلك فى كل شعوب الأرض أيام حماستها الدينية، لكنها على العكس أوجدت لدى أبناء الإسلام رحمةً بمن يخالفهم فى الدين. وهل يوجد أشد صلابةً من عمر فى دينه وهو الذى حمله

التحمس له أن يعلن إسلامه فى وقت كان المؤمنون يعقدون اجتماعاتهم سراً، ولا يجرؤ أحدهم أن يصرح بأنه انضم إلى شيعة النبى ﷺ ؟ فعمر هذا لم يَحُلْ تحمسه لدينه بينه وبين واجبه نحو المعايشين لقومه من أهل الأديان المختلفة، جريا على المبدأ الإسلامى من مراعاة حقوق الجامعة الإنسانية. فقد روى فى تاريخه أنه كان يسأل رجال دولته عن غير المسلمين، فيجيبونه بأنهم على أحسن حال لا يشكون من شيء، وأنهم يعاملون بالعدل والإنصاف، ولا يضيق عليهم فى أى عمل دينى أو دنيوى. فكان رضى الله عنه لا يكتفى بهذا فيذهب بنفسه إليهم ويسألهم عن أحوالهم، تفادياً عن أن يكون بهم ما يشكون منه ويخافون أن يجهروا به.

هذه مدنية لم تولد فى العالم بعد، وأظنها لا تولد إلا بعد مضى أجيال كثيرة، ويخيل إلىّ أنها لا تولد إلا بعد أن لايكون غير الإسلام دين فى الأرض

الروح الإسلامية ومدى تأثيرها[1] في النفس البشرية

- ١٢ -

مقومات السياسة الدولية فى الإسلام

كل أمة تتألف فى أية بيئة من بيئات العالم لا تخلو من أن تتصل بعلاقات سياسية مع الأمم المجاورة والبعيدة عنها، لأن المجاورة والمبادلات التجارية سواء أكانت بين جماعات دانية أم قاصية تولد أزمات سياسية، قد تتطور إلى مشاكل دولية، على حسب ماتعالج به من الأصول المرعية لدى تلك الأمم. فلكم جر سوء معاملة المجاورين وأصحاب الرحلات التجارية إلى حروب طاحنة كان من نتائجها إزالة بعض الدول من خريطة العالم، وما حدا تلك الجماعات إلى هذه الإساءات إلا عدم وجود أساس ركين فيها للسياسة الدولية تسير على مقتضاه، أو لها شيء من ذلك ولكنه مشبع بروح الأثرة التى لا تستقيم معها علاقات حسنة، وتفضى دائما إلى التناحر بين الجماعات المتنازعة.

فوجود سياسة دولية مشبعة بروح العدل والمسالمة، أمر لا مفر منه لكل أمة تريد أن تتقى الأخطار الخارجية، أو تقلل من دواعيها جهد الاستطاعة.

فهل للإسلام سياسة من هذا النوع يقوم بناؤها على أصول الحقوق العامة المتفق عليها بين الأمم المتمدنة اليوم؟

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد التاسع سنة ١٣٥٧ هـ، ص ٢١٧

نقول: نعم، للإسلام سياسة دولية تقوم على أصول الحقوق الطبيعية، وهى أرقى بما لا يقدر من الحقوق المتفق عليها، لأن هذه وضعية لا تزال بعيدة عن المثل العليا، وتلك إلهية هى المُثُل العليا نفسها ولبيان هذا الإجمال نقول:

أول أساس للسياسة الدولية فى الإسلام هو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[1].

فهذه الآية تسقط أمهات المزاعم القومية التى تسوّل للناس الأثرة، وتكره إليهم الأمم الأجنبية. ولكن الإسلام يعلن بأن الناس جميعا أبناء أبوين معروفين، وهم سواء فى الحقوق، وأن الأمم والشعوب وإن اختلفت فى البيئات، قد خلقت لتتعارف وتتعاون على تذليل عقبات الحياة، لا لتتناكر وتتناحر فى سبيل البقاء، ولا يجوز أن تكون الفروق فى الأديان واللغات والعادات والألوان، بصادة للأمم الرشيدة عن أن تتعارف وتتصافى فى مجال المعاملات، ويكون أقربها إلى الله أخشاها له، وأوقفها عند حدوده، وهو الذى يتولى وحده السرائر. هذا مؤدى هذه الآية الكريمة التى هى الأصل الأول للسياسة الدولية لدى المسلمين، ومنه تفرعت جميع المعاملات التى تحقق معنى هذه الزمالة العالمية، التى يريدها الإسلام فى هذه الحياة بين جميع الأنام.

فمرمى الإسلام والحالة هذه ربط جميع شعوب الأرض برباط ألفة عامة، تبتنى على أعم أواصر الإنسانية، ولا تقوم الفوارق الجنسية واللغوية والدينية عقابات كأداء فى سبيل تحقيقها. وأول من باشر العمل على تأسيس هذه الألفة بين أفراد النوع البشرى هو نبى هذه الأمة ﷺ، وجاءت آيات الكتاب كلها باعثةً ومعينةً على وضع هذه السياسة العالمية.

ولما كان الدين لا يخرج عن معتقدات وعبادات ومعاملات، فقد جاءت كلها

---

(١) الحجرات : ١٣

فى الإسلام إما رامزةً إلى هذه الغاية الكريمة أو مهيئةً لها، ومطابقةً لقواعدها العامة كل المطابقة.

أكثر ما تظهر هذه الروح الإسلامية السامية هو فيما فرضه الكتاب على أهله فى المواطن الخطيرة من الدفاع لحماية أنفسهم، أو الهجوم لكسر شرة عدوهم. فقد أمروا فيها بمراعاة أصول مشبعة بروح الاستبقاء والعطف، لا بروح الاصطلام والعسف، كما يحصل بين أمم كتب عليها أن تعيش مؤتلفة لامتازعة، وإنما دفعتها الضرورات لتحكيم السلاح فيما شجر بينها من خلاف مسايرة لسنن الاجتماع، قال الله تعالى: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١).

ولما كان قد يتوهم أن الإسلام يقضى بمقاطعة كل من لايدين به من الأمم بَيَّن الله هذا الأمر على وجه يرفع كل لبس فقال تعالى:

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(٢).

فإن أدت العداوة بين المسلمين وبين بعض الجماعات إلى تحكيم السيف، أمرهم الله أن يقاتلوا أعداءهم، وأن يستبسلوا فى القتال، ولكن على شرط أن لا يحملهم الاستبسال على العدوان والتجنى، بل أن يباشروا الحرب مستشعرين روح العدل المجرد عن الهوى. فكان الإسلام أول من كاشف العالم بأن فى كل شىء عدلاً يناسبه حتى فى التناحر المحض، فقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾(٣).

(١) الممتحنة: ٧.
(٢) الممتحنة: ٨، ٩
(٣) البقرة: ١٩٠.

وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ (أى ولا يحملنكم بغضكم لهم على أن تعتدوا عليهم) وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(٢).

فمن العدل فى الحرب فى شرعة الإسلام أن لا تسرف فى القتل، وأن لا تتجنى على المحارب لك، وأن لاتتعقب المهزومين، وأن لاتجهز على الجرحى، وأن لاتهين الأسرى، وأن لاتقتل خدم المحاربين والمرافقين لهم فى الخطوط الخلفية، فإذا دخلت بلداً معادياً فلا تحرق أشجارها، ولا تهدم دورها، ولا تزهق روحاً من شيوخها ونسائها وولدانها ورجال دينها. وقد تبرأ النبى ﷺ ممن ارتكب شيئاً من ذلك حتى إنه نهى أصحابه أن يسبوا قتلى أعدائهم، فقال عقب وقعة بدر وقد سب بعض الصحابة قتلى المشركين: «لا تسبوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شىء مما تقولون، وتؤذون الأحياء، ألا إن البذاء لؤم». وهذا نهاية ما يؤثر من السمو الخلقى لشعب دعى لأن يضطلع بخلافة الله فى الأرض، وأن يعمل على إقامة دولة الحق فى العالم كله. وإذا كانت هذه أصوله فى المواقف التى تغلى فيها الرءوس تحت تأثير سورة الغضب، والأسنة المُذَربة تزهق الأرواح وتخمد الأنفاس، فما ظنك به فى مواطن العافية، والسلام ناشر ألويته، والهمم تتبارى فى التكيف بعقائل المحامد، لنيل الدرجات العلى، والزلفى من الحق المطلق؟

ثم إن الحاجات الاجتماعية قد تدعو لعقد المعاهدات، وإبرام الاتفاقات، وتقرير المهادنات، فإزاء هذه الحاجات قرر الإسلام أن يكون شعار أمته الوفاء

(١) البقرة: ١٩٤.

(٢) المائدة: ٢

المطلق بها، من غير نظر إلى فائدة تبدو فى نقضها، أو مصلحة تدعو إلى تأويلها، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾[1].

وقال: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾[2].

وذكر صفات المؤمنين الصادقين فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴾[3].

وزاد ذلك تأكيداً فذكر وجوب الوفاء بالعهد ووجوب الصبر فى أشد المحن، وأحرج المواقف، فقال: ﴿ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾[4].

وأوصى سبحانه وتعالى بالوفاء بالعهد حتى بالنسبة لمشركى العرب الذين كانوا ينقضون عهدهم فى كل فرصة يظنونها مواتية لهم فى إيذاء المسلمين،

﴿ وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾[5].

---

(١) المائدة : ١

(٢) الإسراء : ٣٤

(٣) المؤمنون : ٨

(٤) البقرة : ١٧٧.

(٥) التوبة : ٣، ٤.

يوصى الله بالوفاء لهم وهو يعلم أنهم لا يتحرجون من نقض عهدهم، لأول بادرة من فائدة تبدو لهم، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾(١).

ولكى لا يؤثر غدر المشركين فى قلوب المؤمنين فيحملوهم على مجاراتهم فى رذيلة نقض العهد، مقابلة للمثل بالمثل، عاد فذكَّر المسلمين بأن الله يأمر بالعدل بين الناس وبالإحسان، وهو فوق العدل، وبالبر بذوى القربى، وأنه يحرم كل عمل خسيس، وكل منكر وظلم، باعتبار أن هذه الصفات لذاتها من لوازم الإيمان، لا يجوز الهوادة فيها لأى اعتبار كان، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾(٢).

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾(٣).

أى ولا تحملنكم كراهتكم لقوم على مايرتكبونه ضدكم من التعديات المنكرة، على أن تتخطوا طريقة العدل فى معاملتهم.

هذه غايات قصية من السمو السياسى لا يزال العالم بعيداً عنها، وقد عمل بها المسلمون فى عهد لم يكن للوفاء بالعهد فيه من حافز غير الخوف من انتقام

(١) الأنفال : ٥٥ ، ٥٦.
(٢) النحل : ٩٠، ٩١
(٣) المائدة : ٨

المعاهد، لأن غرض الإسلام لم يكن توفير المصالح المادية لأهله فحسب، ولكن تطهير قلوبهم من أقذاء الصفات الحيوانية، وجعلهم أمة نموذجية تقوم على حراسة المُثُل الخلقية العليا فى الأرض. وقد ثبت من استقراء حوادث التاريخ أن الاستقامة الخلقية فى السياسة، كانت دائماً أعود على أهلها بالفوز فى مجالات الحياة الاجتماعية العامة من العوج والتلون والنزول على حكم القوة.

ومن الأخلاق السياسية التى بثها الإسلام فى أهله قبول السفراء واحترامهم، والتفاوض معهم على قدم المساواة، فقد روى أن رسول ﷺ كان يحتفل بالوافدين عليه، ويحبوهم بألطافه، حتى روى أنه فرش عباءته لوفد نصارى نجران وأجلسهم عليها.

ويروى عنه ما هو أعظم من ذلك مما يدل على مرونة سياسية حقة يجب أن تؤثر عنه، وتنشر بين الناس، ذلك أنه لما كانت السنة السادسة من الهجرة، أراد النبى ﷺ أن يعتمر، أى يطوف بالبيت الحرام فى غير أوان الحج، فاستنفر الناس لذلك فاجتمع إليه ألف وخمسمائة، فخرجوا ليس عليهم من السلاح إلا السيوف. فلما بلغ قريشا ذلك هاج هائجها فأرسلت بديل بن ورقاء ليتعرف مقصدهم، فعاد إليهم وأخبرهم أنهم جاءوا معتمرين، فقالت: أيريد محمد أن يدخل علينا فى جنوده معتمراً فتسمع العرب أنه قد دخل علينا عنوة، وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا، والله لا كان هذا أبدًا ومنا عين تطرف! وأرسلوا إليه حليس بن علقمة. فلما عاد إليهم أيد قول بديل بن ورقاء ونصحهم بأن يدعوه وما أراد. فلم يقبلوا نصيحته وأرسلوا إليه عروة بن مسعود الثقفى، فقال له: «يامحمد قد جمعت أوباش الناس ثم جئت إلى أصلك وعشيرتك لتفضها بهم؟ إنها قريش قد خرجت تعاهد الله أن لا تدخلها عليهم عنوة أبدًا» وكان عروة يتكلم بهذا ويمس لحية رسول الله بيده، وكان المغيرة بن شعبة، وهو أحد الصحابة، يقرع يد عروة كلما هم بذلك. ولما عاد إلى قريش أيد رأى صاحبيه. فقالوا لا بأس من أن يجىء فى العام المقبل، أما هذا العام فلا. وأرسلوا سهيل بن عمرو ليتفق مع النبى ﷺ على ذلك. فقبل رسول الله هذا

العرض وأخذ يملى على علىّ بن أبى طالب نص العقد، فأملاه: بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سفير الجاهليين: لا نعرف الرحمن الرحيم، اكتب: باسمك اللهم. فقبل رسول الله ذلك منه. ثم مضى في إملائه فقال: ياعلى اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله. فاعترض مفوض قريش على هذه العبارة، وقال: لو نعلم أنك رسول الله ما خالفناك. فأمر النبى ﷺ كاتبه أن يمحو ماكتب، فكره على محوه، فمحاه رسول الله بيده.

يتحكم الجاهلىّ فى وجوب حذف كلمتى الرحمن الرحيم وهما عربيتان والقصد منهما تمجيد الخالق، ويأبى إثبات عبارة (رسول الله) بحجة أن قريشاً لا تعتقد بصحة نبوته، ويغبى عن أن إثبات هذه العبارة فى العقد لا يقتضى إيمانهم به، ولكن الجاهليين لا منطق لهم. فاعجب من سمو منطق النبى ﷺ فى حذفها، لأن ذلك الحذف لا يقتضى سلبها منه.

هذه، لا أقول مرونة سياسية، ولكنى أقول إنها حكمة نبوية، ورسول الله قدوة لأمته، وقد جرى خلفاؤه فى أحفل عصور الإسلام بالعظائم على مثل هذه الخطة من المياسرة والملاينة، وتحدى المثل العليا فى المعاملة والمجاملة، واستشعار أسمى الصفات النفسية حتى فى المخاصمة والمقاتلة، فوضعوا بذلك أصول سياسة دولية هى أحكم قواعد، وأرسخ وطائد، وأجمع لمبادىء الإنسانية، من أية سياسة فى الأرض من يوم أن خلق الله الخلق إلى اليوم.

فمن يتأمل فى أقوال أقطاب العالم الحديث من أن السياسة لا قلب لها ولا ضمير، وأنها يجب أن تبنى على أصول تنازع البقاء، ومحاباة الأقوياء، ويقارنها بأصول السياسة الإسلامية، يجد البون شاسعا بين المذهبين، ولا يسعه إلا أن يعترف بأن تلك سياسة جاهلية من آثارها استبقاء الإحنَ والأحقاد بين الأمم والشعوب، وإثارة الحروب بينها مع ما تجره من خراب على العمران، وهذه السياسة أساسها العدل المطلق، وثمرتها التقريب بين الجماعات البشرية، والقضاء على المنازعات المصلحية، وردها جميعًا إلى دستور من التعاون والائتلاف جدير بكرامة الإنسانية، وملىء بإيجاد زمالة عامة بين البشر كافة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[1].

(١) الإسراء: ٩.

الروح الإسلامية ومدى تأثيرها[1] فى النفس البشرية

- ١٣ -

المقومات الشرعية فى الإسلام

لم تر الأرض شريعة أرسخ قواعد فى العدل، ولا أبعد مدى فى المساواة واحترام الغير، ولا أجمع لأصول الحياة الاجتماعية، وأشمل لعناصر التطورات الإنسانية، من الشريعة الإسلامية، ذلك لأنها قامت على مراعاة الحقوق الطبيعية، وراعت فى وضعها لا مصلحة المجتمع الإسلامى وحده، ولكن مصلحة المجتمع البشرى كله، بل والمجموع العالمى عامة، ولا حظت فى بناء جماعتها أن لا يكون أمرهم قائماً على التضخم بامتصاص دماء المقهورين، ولكن على بذل النفس والنفيس فى سبيل إقامة المثل الأعلى للحياة الإنسانية الكاملة.

هذا كلام يحتاج لبيان، فإليك:

أدرك الإنسان فى القرون المتأخرة أن هنالك عدلاً مطلقاً، وحقوقاً طبيعية لكل فرد وكل جماعة، وأن قصارى أمر الشرائع التى تعتبر عادلة هى التى تقُرب بالإنسان إلى هذا العدل المطلق وهذه الحقوق الطبيعية، لا أن تؤتيه بها كاملة، لقيام عقبات من طبائع شتى تحول بين المشترعين وبينها. ولكن الإسلام

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد التاسع سنة ١٣٥٧ هـ، ص ٢٨٩

انفرد عن جميع الشرائع فى تقرير العدل المطلق والحقوق الطبيعية للأفراد والجماعات معاً.

شريعة الإسلام فى القرآن الكريم، وهى فى الجملة أصول أولية من العدل والمساواة على إطلاقهما، وقد تركت لأولى البصر تقدير الحقوق، وتحديد التبعات، وتقرير العقوبات (إلا فى مواطن معدودة).

وقد قضى النبى ﷺ فى حوادث حفظتها السنة الصحيحة، وجاء الأئمة بعده فقضوا بأمور أخرى لم تكن وقعت على عهده ﷺ، وقد راعى جميعهم فيما قضوا به العدل المطلق والمساواة الكاملة، فجاءت مذاهبهم أعدل ما عرفه البشر إلى اليوم.

أطلق الشارع حق النظر فى الشريعة لكل إنسان حتى من لا يقبل منهم النظر فى أحقر الأمور لدى الأمم كافة كالأرقاء ومن فى حكمهم، فتكلم كل قادر على الفهم والاستنباط فى هذه الشئون، واعتبر كلامه إما اجتهادًا مطلقاً منه، أو اجتهادًا فى مذهب من المذاهب المعروفة، حتى لا يستطيع أحد أن يأتى بقول من أقوال المشترعين المعاصرين لا يكون قد سبقهم إليه إمام من الأئمة أو عالم من علماء المسلمين. فإذا أريد أن يعمل من جملة هذه الأقوال قانون عام أمكن عمله على حال أكمل من حال كل قانون فى الأرض، ويكون مع ذلك قابلاً للتطور إلى ما لا حد له، لأن الإسلام لم يضع للاجتهاد حدًا، ولم يعين له أهلاً، ولم يحدد له زمنًا، ولكنه ترك بابه مفتوحًا ليسع جميع التطورات العقلية التى تدخل فيها العقول فى كل زمان ومكان، حتى لا يكون للمسلمين عذر فى تركه والتعويل على الشرائع الأخرى.

هذا من ناحية الأصول الأولية، التى أقيم عليها صرح الشريعة الإسلامية، فهل راعى المشترعون الإسلاميون هذه الأصول، وهل أساغها الناس فى تلك العصور ونفذوها على أكمل الوجوه؟

نحن مضطرون لتقديم هذه الأسئلة، لأن تنفيذ مقتضيات العدل المطلق

والمساواة الكاملة، لم يحصل إلى اليوم فى أرقى أمم الأرض من اللاتى نصبن أنفسهن أوصياء على العالمين، فهل تنفذه أمة فى أول عهدها بالاجتماع، وتقوم بحقه فى الحدود التى نعرفها نحن اليوم؟

نعم: نفذته الأمة الإسلامية، وقامت بحقه طوال عهد قوتها، وإليك طرفًا من سيرتها فى ذلك، والحوادث أدلة لا تقبل الشك:

ساوت بين خاصة المسلمين وعامتهم، وبين الكافة من أهل الملل الأخرى أمام القانون، ونظرت فى منازعاتهم على بساط المساواة المطلقة، ولم تعتد بالفروق التى بينهم من نواحى الجنس والدين والميزات الأدبية والمادية، ألم يُسَوِّ الفاروق رضى الله عنه بين يهودى وعلى بن أبى طالب، وبين أحد العامة وجبلة بن الأيهم ملك غسان، وبين واحد من الرعية وابن عمرو بن العاص فاتح مصر وأعطاه درته ليضربه بها كما ضربه ابن عمرو بعصاه؟ ألم يغضب النبى ﷺ من أبى ذر الغفارى عندما قال لأحد السود: يا ابن السوداء، وقال له: إنك رجل فيك جاهلية؟ أسمعت منذ خلق الله العالم إلى اليوم أن مشترعاً قرر أن من يقتل عبده أو عبد غيره يقتل به كما فعل ذلك الإمام مالك؟

إننا نكتب هذا ونحن نترنح طرباً من هذه الآيات الباهرة، ونتساءل: هل يمكن أن يكون لهذه الشريعة التى بلغت درجة المثل الأعلى فى العدل والمساواة مصدر غير الوحى الإلهى؟

وهل يستطيع رجل نشأ فى جزيرة العرب، بيئة الفخر بالآباء، والعدوان على الضعفاء، أن يأتى بمثل هذا العدل فى ذلك العهد البعيد عنا؟

الحدود المقررة على بعض الجرائم فى القرآن:

قلنا فى مفتتح هذه المقالة: إن الشريعة القرآنية أصول أولية من العدل المطلق، وقد تركت لأولى البصر تحديد التبعات، وتقدير العقوبات، إلا فى مواطن معدودة، فهذه المواطن هى الزنا والقذف والسكر والسرقة والإفساد فى الأرض. الشريعة الإسلامية قررت على الجريمة الأولى الرجم إن كان مرتكبها

محصناً، وعلى الثانية مائة جلدة، وعلى الثالثة ثمانين جلدة، وعلى الرابعة قطع اليد، وعلى الخامسة قطع اليد والرجل من خلاف أو النفى.

هذه العقوبات تصادف اليوم اعتراضات من جانب المشترعين. وقد أباحوا هم الزنا وشرب الخمر، وقرروا على القذف والسرقة والإفساد فى الأرض عقوبات لاتتناسب وخطرها. فكان من أثر ذلك أن انتشرت الجرائم فى العالم المتمدن انتشاراً مزعجاً لم يكن معروفاً من قبل، ولا يمر يوم دون أن يزداد المجرمون عدداً، وتكثر وسائلهم الشريرة، حتى أصبح الناس لا يأمنون على أموالهم وأنفسهم.

ولكن الإسلام دين إصلاح عالمى يرمى إلى تأليف مجتمع تقل فيه الشرور والآثام إلى أقصى حد ممكن، ويسود فيه التكافل فى الحياة، والترافد حيال عقباتها.

وفى الأرض مذاهب إصلاحية كثيرة ممثلة فى الأديان الموجودة، وفيما تركه الفلاسفة الأولون من التعاليم، وما رآه المفكرون المعاصرون من النظم، من أول حكومة الفرد إلى الاشتراكية الشيوعية، بل إلى الفوضى الباحتة.

وقد طبقت هذه المذاهب كلها فكانت آثارها غير مرضية، إذ زادت الجرائم حتى فى عهد المدنية الراقية، والفتوحات العلمية العظيمة، ولا تزال فى ازدياد. وقد ألح المشترعون فى الغرب على دراسة مناشىء الجرائم ووسائل علاجها، وطبقوا كثيراً من أساليبهم فأخفقت جميعاً. ولم يبق إلا وسيلة واحدة وهى تشديد العقوبة على المجرمين ليكون فى ذلك ردع لأهل النفوس المريضة، ووازع لذوى النزعات الخبيثة.

وخير لأى مجتمع أن تقطع بضع أيد من أن يتمادى اللصوص فيه على العدوان على الناس ليلا ونهاراً، وكثيراً ما جرت تعدياتهم إلى إزهاق نفوس زكية.

والجلد إذا كان مشروعاً فى الإسلام بالنسبة للقاذف والسكران فإن مبدأ الجلد

معمول به إلى اليوم فى أرقى البلاد مدنية كإنجلترة وألمانيا عقاباً على بعض الجرائم.

فإذا رأى بعض الناس أن عقوبة الرجم شديدة فقد احتاط لها الإسلام فوضع للوقوع تحت طائلتها ضمانات قوية، وهى أن يشهد بها أربعة شهود عدول يقررون أنهم رأوا الفعل بأعينهم واقعاً بحيث لا تتسرب إلى واحد منهم شبهة من ملامسة أو مفاخذة أو غير ذلك، وهذا يكاد يكون مستحيلاً.

فإن لم يتم نصاب الشهادة فلابد لاستحقاق العقوبة من الاعتراف بالجريمة، فإن لم يعترف بها سقطت عنه وعن شريكه فى الإثم وإن اعترف.

ومن أعظم ما يعرف من الاعتداد بمصلحة المتهم أن الزانى لو اعترف وبدىء فى الرجم ثم عاد فأنكر، رفعت عنه العقوبة، وهذا غاية ما يعرف من الرحمة بالإنسانية. وفيه دليل قاطع على أن الإسلام لم يقرر ما قرره من هذه العقوبات إلا للردع لا للانتقام أو التشفى.

ومن خصائص الشريعة الإسلامية قيامها على العلم وهو غير محدود، وعلى الفهم وهو قابل للتطور، وعلى اعتبار الأحوال المحيطة، والعوامل الخارجية، وعلى الاعتداد بناموس الترقى. وقد تظهر هذه الخصائص كلها جلية من النظر فى الأمور الآتية:

(أولها) أن التشريع فى الإسلام لم يودع إلى طائفة خاصة، ولا حصر فى طبقة معينة، ولا جعل من حظ أمة دون أخرى، ولكنه جعل حقًا شائعاً للكافة يتناوله من شاء من المسلمين حتى المماليك والموالى، ثم ترك للرأى العام الحكم فى الأخذ بما قيل أو إهماله.

(ثانيها) أنه لم يوضع للتشريع فى الإسلام أسلوب مقرر لا يجوز تعديه، فترك لكل ناظر الخيار فى انتخاب أسلوبه، فلذلك تحالفت أساليب مجتهدى الإسلام، ولم يعتد المسلمون باختلافها بل اعتدوا بمقدار انطباقها على الأصول الأولية للكتاب والسنة.

(ثالثها) أنه لم يخص التشريع فى الإسلام بزمان دون زمان، فقد كان للقرن الأول أئمة، وللثانى أئمة يبلغ عددهم نحو سبعين يتبعهم الناس دون حرج. ونص العلماء أنه كان فى كل قرن علماء وصلوا إلى درجة الاجتهاد، وقرروا أن بابه مفتوح إلى يوم القيامة، ومعنى هذا أن الفيض الإلهى لا يتوقف على جيل من الناس دون جيل آخر حتى قالوا: كم ترك الأول للآخر. أى كثير.

(رابعها) أن أحدًا لم يحجر على أحد فى اتباع أى المذاهب الفقهية شاء، ولم يضطهد أحد من المسلمين بسبب مذهبه قط، وإنما نبه العلماء على المبتدعة، وعلى من خرج عن دائرة الإسلام منها.

(خامسها) إجماع المسلمين على أن الاجتهاد فى تنوّر أسرار الشريعة واجب على الحاصلين على مؤهلاتها، ولذلك لم يكرهوا قط أن تتعدد المذاهب، وهم فى ذلك كله يصدرون عن سنة النبى ﷺ نفسه، فقد قال: «للمجتهد أجران إن أصاب، وأجر إن أخطأ». وفى هذا أكبر تنشيط على النظر والتأمل، ومحاكمة الأدلة المختلفة والتحرى عن الحق الصميم.

(سادسها) كان المسلمون لا يروعهم الخلاف بين المجتهدين مهما كان بعيد المدى، بل كانوا يقابلون هذه الخلافات بارتياح عظيم، وكانوا يكبرونها إلى حد أن جعلوا لها علماً خاصًا سموه علم الخلاف، فكانوا يتدارسونه كما يتدارسون أصول الفقه لتحصيل ملكة السريان فى سرائر المسائل المعقدة. وسرى الترحيب بهذا الخلاف إلى العامة حتى قالوا: «اختلافهم رحمة».

هذه الوجوه أعجب ما يروى عن شريعة دينية، فلا يسع أى مشترع من المعاصرين أن لا يظهر دهشه منها؛ إذ يرى بعينيه أنها تضع شريعة الإسلام فى مستوى بعيد عن العوامل، التى تلحق بالشرائع فتصيبها بالوقوف والتحجر، وتوجد لها من المناعة وقوة الحياة ماتتقى بهما كل خطر يخطر بالبال من دواعى الانحلال، وتضمن لها الخلود والتفوق فى وسط كل تطورات العقل والعلم معا.

وما أضر بالشرائع الدينية السابقة فى العالم كافة إلا أن أصحابها اعتبروا جزئياتها ثابتة فى درجة ثبوت كلياتها، فتقدمت الجماعات التابعة لها فى العلوم والصنائع والفنون، وجدَّت فيهم مع تتالى العصور أمور وشئون، ونشأت لهم

عادات وآداب، وحدثت بينهم وبين الأمم الأخرى ارتباطات، وكل ذلك يقتضى تشريعات جديدة، ونظم مناسبة لها. فوجد القائمون بشرائعهم أنفسهم بين أمرين: فإما أن يعطلوا تقدم تلك الأمم لتدوم على ما كانت عليه قبل حدوث التطورات الجديدة عليها، وإما أن يغيروا فى أوضاع شريعتهم، فعز عليهم الأمر الأخير، فلم يجدوا بدًا من الأمر الأول، فبذلوا وسعهم فى عرقلة كل تقدم للأمم التى أوقعها سوء حظها تحت سلطانهم، وكثيرا ما لجأوا إلى السلاح فى هذه السبيل ليدوم لشريعتهم سلطانها، ولهم مكانتهم الممتازة، فلم يفلحوا، وكانت النتيجة أن تركت الشعوب الدين لمثليه، وأخذت هى فى تقدمها. وقد اتقى الإسلام ذلك كله بأسلوبه البديع كما رأيت.

فهب أن عقولاً قد تمردت إلى أقصى حد، فلم تخضع إلا لأحكام عقولها غير معتدة بأى أصل فى الأرض. فإنها بذلك التمرد لا تستطيع أن تسقط الشريعة الإسلامية، لأن العقول مهما تمردت فلا تستطيع أن تتمرد على الحقائق، وما دامت فى هذه الدائرة فهى فى دائرة الإسلام نفسه، وهو يريد منها أن تتمرد على الأباطيل لتصل إلى الحق المجرد عن الملابسات.

هذه مقومات الشريعة الإسلامية، فإذا أراد المسلمون إظهار عظمتها وخلودها فليقيموا هذه المقومات وليعملوا بها، غير وانين ولا متواكلين: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

(١) العنكبوت: ٦٩.

الروح الإسلامية ومدى تأثيرها[1]
فى النفس البشرية
- ١٤ -
مقومات التطور الأدبى والاجتماعى فى الإسلام

إن تطور الجماعات فى الناحيتين الأدبية والاجتماعية من الأمور التى يجب أن تعنى بها الشرائع لأنها من أمسّ الأمور بحياة الأمم. فالجماعات التى تعيش على حالة من الأحوال ولا تصادف من الشريعة التى تقود ميولها، وتدير قواها المعنوية ما يسهل لها سبيل التطور فى الآداب والعادات والعلوم والصنائع، تقف حيث هى، وتسبقها من كان دونها من الجماعات، وتدخلها فى طاعتها.

وقد دل التاريخ على أن شرائع جنت على أهلها من هذه الناحية جنايات تعتبرغايةً فى الفظاعة، فقد أجمع المؤرخون على أن المسيطرين على أوروبا بعد القرن الرابع من الميلاد أمسكوا أهلها فى حالة جمود أكثر من ألف سنة، فلم ينبغ منهم عالم واحد فى علم من العلوم، وانحط ما كان لديهم من آثار اليونانيين والرومانيين من المعارف والفنون، حتى بعث الله المسلمين فاستخرجوا تلك الكنوز المدفونة من قبورها، وأرسلوها نوراً ساطعاً غمروا به الناس، وبما زادوا عليه من نورهم قروناً كثيرة، حتى استحقوا أن يلقبوا ببناة المدنية الحديثة.

وما أُتيت الأديان، ودب إليه الضعف، إلا من ناحية إغفال قادتها هذه الناحية في تعاليمهم، ناحية التطور في كل مجال من مجالات النشاط العلمى والعملى.

والذى حدا أولئك القادة إلى سد طريق التطور فى وجوه أتباعهم، أنهم

(١) مجلة الأزهر - المجلد التاسع سنة ١٣٥٧ هـ، ص٣٦٤

تخيلوا أن التطور يخرج بهم عن الأصول القديمة، ويفضى إلى ضياع ما أتمنوا على حفظه سليماً من كل تحول، وغفلوا عن أن التطور إذا عدا على شى فإنما يعدو على الباطل، أما الحق فيزيده جلاء ولألاء. فإذا كان الذى يتمسكون به حقًا فلا خوف عليه من أى تطور كان، وإن قلب الأوضاع كلها رأساً على عقب، وإن كان باطلاً فعبثاً يحافظون عليه، فإنهم إن استطاعوا دفع الغير عنه جيلاً أو جيلين اضطروا فى النهاية للقهقرى إزاء القوى الغالبة للانتقال، وانهارت بانهيارهم صروح ربما كان بقاء بعضها ضروريًا.

أما شريعة الإسلام من هذه الناحية فلا أقول إنها قد احتاطت لها فحسب، ولكنى أقول إنها قد فرضت التطور على أهلها فرضاً، ودفعتهم إليه دفعاً، لأنها شريعة عهد الرشد للأمم، وقد علم الله أن الأمم فى هذه العهد تطفر فى الترقى طفرًا، وتقطع المراحل إليه قفزًا، فهى بحاجة إلى شريعة لا تناسب حالتها الراهنة فحسب بل تهيئ لها وسائل التقدم، وتعبد لها طرقه، وتمدها فيه بقوة معنوية فوق قواها الطبيعية، لتحفظ وجودها بين أمم لا تكاد تغرب عن واحدة منها الشمس حتى تدوى الجواء باكتشاف جديد تحدثه يؤثر فى الأحوال العامة تأثيرًا عميقًا يجب المبالاة بنتائجه، وماذا تغنى المبالاة المجردة إذا لم تقترن بالعمل، وأنى يكون عمل إذا لم يكن علم عال ومحاولات تبلغ النهايات المعروفة؟

قلنا: إن الإسلام قد فرض التطور على أهله فرضاً ودفعهم إليه دفعاً، وإلا فكيف نفسر انتقال المسلمين بعد أخذهم بهذا الدين من عداد الأمم الجاهلية المسودة، إلى مصاف الأمم العالمة السائدة، أستغفر الله بل إلى صف فوق الصفوف صارت فيه وحدها حافظة للعلم والحضارة والفنون دون سائر الأمم؟ وقد اعترفت الأمم كافة لها بالزعامة قروناً طويلة كانت فيه تؤم عواصمها تأخذ عنها فيها العلم والحكمة، وأسرار الصنائع والفنون، أليس هذا لأن الإسلام يفرض على متبعيه التطور فرضاً، ولا يكتفى بأن يسمح لها به سماحاً؟

إن قول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1].

وقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[2].

وقوله: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3].

وقول النبى ﷺ: « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وقوله: «خذ الحكمة ولو من مشرك »كل هذه الآيات والأحاديث فرضت على المسلمين العلم، ودفعت بهم إلى مضايقه دفعاً، والعلم يؤدى إلى الترقى لا محالة، بل هو طريقه الوحيد فى كل أدوار البشر.

هل اكتفى الإسلام بهذا اللون فى تحبيب العلم إلى الناس، وأجبارهم على التعويل عليه؟ لا، ولكنه لم يدع لوناً من ألوان التأثير فى العقول، ولا باعثاً من بواعث التوثب فى النفوس إلا استخدمه فى هذه السبيل، حتى قال النبى ﷺ: «كن عالماً أو متعلماً ولا تكن الثالثة فتهلك» وقال: «لموت عالم واحد أشد عند الله من موت قبيلة» وقال: «فقيه واحد خير من ألف عابد» وقال: «يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء فيرجحه».

هذا كله وأمثاله مما يكاد لا يحصى يفسر ما حدث من الانقلاب العظيم فى جماعة العرب، وإلا فمن ذا الذى كان يتخيل أن أولئك الجاهلين، بعد فترة من الزمان لا تعتبر فى حياة الأمم شيئاً يذكر، يصبحون وفى أيديهم قبس العلم يعشو إلى نوره العالم أجمع، يأخذون عنهم ما جعلهم الله أمناء عليه دون خلقه، فكانوا الحافظين لميراث الإنسانية من ناحية، والواسطة فى إحيائه، وتسهيل الانتفاع به، من ناحية أخرى؟

من ذا الذى كان يستطيع أن يتخيل هذا لولا أن الإسلام قد أوجب على متبعيه الاندفاع فى التطور إيجاباً، ولم يكتف أن يبيحه لهم إباحةً؟

---

(١) الإسراء: ٨٥.
(٢) طه: ١١٤.
(٣) الزمر: ٩.

هل وضع الإسلام حدًا للتطور؟

لا، إن الدين يقول لمتبعيه: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1] يفتح أمامهم باحة اللانهاية فلا يدع فى أنفسهم حاجة إلى السؤال عن الحدود والغايات. لذلك رأيت المسلمين الأولين بعد وفاة نبيهم بست سنين اندفعوا وراء العلم اندفاعهم وراء الحياة. ولا عجب فإن الدين الذى يصرح بأن عقل آيات الله وإدراك أسرارها من حظ أهل العلم دون سواهم وحدهم فيقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[2].

يجب أن يوصف بأنه دين العلم غير منازع.

هل وضع الإسلام لشهوات العقول حدًا؟ وهل أوصد فى وجه مستفيد مجالاً؟ اللهم لا، ولكنه أباح لها أن تجول فى كل مجال، وأن تجوس خلال كل مجهول تظن أن وراءه فائدة مادية أو معنوية.

وقد ندب الإسلام المسلمين إلى تعلم اللغات الأجنبية، وحضَّهم على تعلم كل علم حتى العلوم المعروفة بأنها باطنية أو ظلمانية، إن لم يكن للانتفاع بها فلاتقاء الضرر الذى يجىء من قبلها، كالعلوم الطلسمية والسيمياء وأسرار الحروف وغيرها.

ومَنْ مِنَ الناس يخطر بباله أن الإسلام يسمح بتعلم السحر، وهو من أخص العلوم الظلمانية، وقد أعدم مئات الألوف من المتهمين به فى الأمم، وألقوا فى النار أحياء، ولا تزال بعض القوانين الأوروبية تعاقب من يشتغل بالاتصال بالعالم الخفى ولو من ناحية التجارب العلمية.

لم يحرم الإسلام من هذه العلوم الظلمانية إلا العمل بها، حتى قال المسلمون فى حِكمهم: «تعلم السحر ولا تعمل به».

---

(١) النحل: ٨.
(٢) العنكبوت: ٤٣.

هذا تسامح عظيم، بل مراعاة حقة للطبيعة البشرية، فإن الإنسان مدفوع بطبعه لأن يرود كل مجهول، ويتحسس من كل محجوب، ويرمى بنفسه إلى كل مرمى ولو كان وراءه حتفه فالدين الفطرى المماشى لطبائع النفوس لا يسمح أن يوصد على العقول باحة، ولا أن يضع لمرماها حداً. ولو كان فعل ذلك لكسر الناس كل حاجز وضعه، وجازوا كل حد رسمه، ولأصبح ديناً خياليًا يعرف ولا يعمل به، والله لا يريد إلا أن يكون الإسلام دين العالمين العملى.

ومما هو جدير بالذكر أن المسلمين لم يكتفوا بالشغل بجميع هذه العلوم الباطنية، ولكنهم ألفوا فيها كتباً لاتزال موجودة إلى اليوم، منها المطبوع ومنها المخطوط، وكثير منها محفوظ بدار الكتب المصرية، وفى مكتبات الأفراد فى جميع البلاد الإسلامية.

ومن أغرب ما نرويه أن المسلمين اشتغلوا كثيرا بكيمياء الذهب ووصلوا منها إلى نتائج عملية، فقد صرح بعضهم بأنه قد أنجح فيما تصدى له منها، وليس لنا أن نكذبهم كما كنا نفعل قبل سنين معدودة، إذ أعلن علماء من الكيماويين فى أوروبا بأنهم قد توصلوا إلى عمل الذهب، ولكن يصنعهم من عمل مقادير كبيرة منه أنه يتكلف قدر ما يصنع منه.

وثبت أيضًا، كما قرره الأستاذ (دريبر) وغيره، أن العرب بحثوا فى مذهب التطور والاستحالة ودرسوه فى بعض دورهم العلمية بأوسع مما يفعله الأوروبيون اليوم، إذ أنهم سَرَّوا عوامل التطور العام على المعدنيات أيضا، فكانهم صعدوا بتلك العوامل إلى أعلى مصادرها، ولم يقصروا النظر فيها إلى طور متوسط منها.

وقال بعض المؤرخين: إنه ثبت أن العرب وصلوا فى رحلاتهم الجغرافية إلى شواطئ أمريكا، وإن كريستوف الذى اعتبر مكتشفها قد عثر هنالك على أشياء مادية تدل على وصول العرب إليها قبله.

وقد شهد كبار المؤرخين الاجتماعيين أن العرب قد وصلوا من بعض الفنون والصنائع إلى شأو لم يبلغه الأوروبيون بعد. قال العلامة الدكتور (جوستاف لوبون) فى كتابه (تمدن العرب):

«العرب مع ولوعهم بالأبحاث النظرية لم يهملوا تطبيقها على الصنائع والفنون، فقد أكسبت علومهم لصنائعهم جودة عظيمة جداً. وإننا وإن كنا لم نزل نجهل أكثر الطرائق التى سلكوها لذلك، فإننا نعرف نتائجها وآثارها، فنعرف مثلاً أنهم احتفروا المناجم واستخرجوا منها الكبريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب، وأنهم برعوا جداً فى الصباغة، ومهروا فى سقى الفولاذ مهارة بعيدة المدى، وأنهم فى كثير من فنون الصنائع، قد برعوا براعةً لم يلحق لهم شأو فيها للآن (تأمل)».

نقول: إذا كانت أوروبا على ما وصلت إليه من الإبداع الفنى والصناعى تشهد على لسان أكابر ممثلى العلم والفنون فيها بأن المسلمين وصلوا من الكمال العملى فى كثير من الصنائع إلى أبعد مما وصلت هى إليه، فإن ذلك لا يمكن أن يكون ثمرة تعاليم دينية جامدة، وأزيد فأقول: ولا تعاليم حائة عليه من الطراز المعروف، ولكنها تعاليم من نوع أرفع، يسندها من جميع نواحيها بواعث تحضيض للتكمل، وبلوغ غايات السمو فى كل ضروب النشاط الروحى والعقلى، قد مزجت مزجًا مقيساً على القابليات البشرية فى كل دور من أدوارها. من لم يفترض هذا الافتراض، مستهدياً ببعض التفصيلات العملية، فلا يستطيع أن يفهم كيف يؤدى هذا الدين جماعة يؤلفها على غير نظام الجماعات، طفرة دون تدرج، ثم يقذف بها فى قابوس الحياة الملتطم الأمواج، إلى ساحل للسمو الروحى والمادى لم تصل إليه أمة قبلها.

والذى علينا بعد هذا الافتراض أن ندرس الإسلام دراسةً تحليليةً لنصل من مجموع تعاليمه إلى كنه هذه العوامل الفذة، المنبثة فى صميم تركيبه.

إنه قد قيل: لو كان الإسلام كما تدعى لكان حال الشعوب الآخذة به غيرما هى عليه اليوم، وأنا قد قلت: لو لم يكن هو كما ادعيت لما أمكن تعليل قيام جماعته الأولى على النحو الذى كانت عليه فى مدى من الزمان لا يكفى عشرة أضعافه لإحداث بعض التطورات التى دخلت فيها، حتى انتهت إلى ما انتهت إليه. فإن اعتبر خصوم الإسلام ما قالوه شبهة سلبية، فإنا قد قابلناها كما ترى بحقيقة إيجابية، وأقمنا على حقيقتها كل دليل.